



العدد 33
يونيو 2020

مجلة ليكس الواس

مجلة إلكترونية متخصصة في التاريخ والعلوم الإنسانية
(المعرفة التاريخية بين يديك - منبر الشباب الباحث)

هلف العدد:

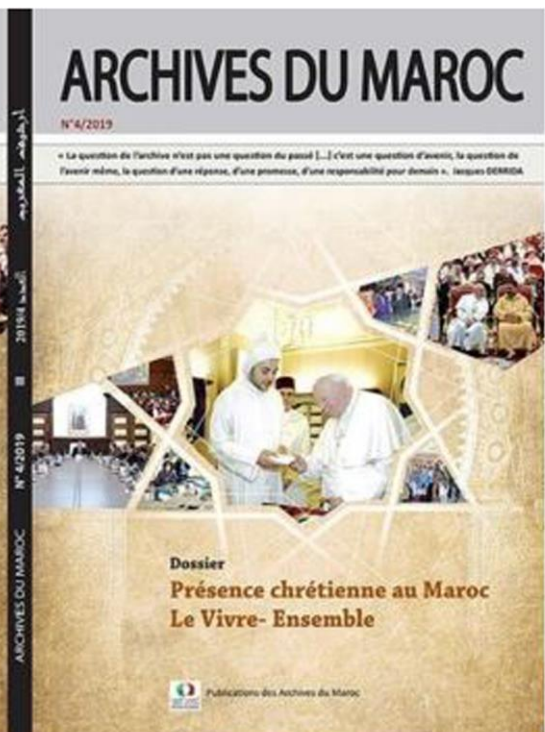
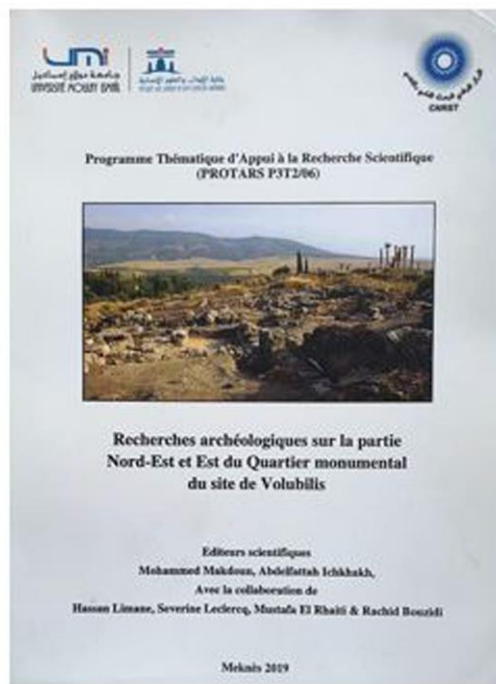
الجوائح والأوبئة في تاريخ المغرب



محتويات العدد:

- تدايير مواجهة الجوائح والأوبئة في تاريخ المغرب - الأوبئة والهجرة
- ثورة أبي يزيد النكاري: دراسة في عوامل النجاح والإخفاق
- المحافظة المندمجة للتراث الأثري والمبني بالمغرب: مقاربات تديرية
- علاقة الدولة بالمجتمع من خلال وثائق مخزنية: مرحلة السلطان عبد العزيز نموذجا
- التصور التاريخي للاسترقاق في بلاد الغرب الإسلامي والأندلس خلال الحقبة الوسيطة
- دور الإعلام الجديد في التأثير على العلاقات الاجتماعية في الوطن العربي
- الأزمة ونشأة المدونة المصدرية: رصيد الأرشيف الوطني التونسي في ضوء الأزمات

من ثمرات المطابع:



المدير المسؤول:
محمد أبيهي
الإشراف العلمي:
محمد أبيهي
خديجة الراجي
محمد سعيد المرتجي
مصطفى الرئيس
حكيم عمار
خالد الصقلي
عبد الرزاق السعيدي
مصطفى المرون
مونية أيت كبورة
خالد أوعسو
عبد الهادي فك
عبد الرحيم أمل



يمكنكم تحميل أعداد المجلة عبر الرابط التالي:
www.lixis_magazine.blogspot.com

مجلة ليكسوس في الهكتبات الرقمية الدولية:



أنترنيت الأرشيف



https://archive.org/details/@lixus_magazine



يتم استقبال المساهمات العلمية عبر البريد الإلكتروني التالي:

lixus.magazine@gmail.com

محتويات العدد:

الصفحة	فهرس المحتويات
6	• كلمة الافتتاح – تدبير المغاربة لمواجهة الجوائح والأوبئة.
9	• الحسين بوزيت، الهجرة والأوبئة أو حينما يصرف "الدوفيس" (devais) مقابله أمراضا
21	• أحمد العثماني، ثورة أبي يزيد النكاري: دراسة في عوامل النجاح و الإخفاق
41	• ماجدة مولود رمضان الشرع، تاريخ الاسترقاق في بلاد الغرب الإسلامي والأندلس خلال الحقبة الوسيطة.
50	• عبد الاله حداد، علاقة الدولة بالمجتمع من خلال وثائق مخزنية: مرحلة السلطان عبد العزيز نموذجا
67	• محمد البشير رازقي، الأزمة ونشأة المدونة المصدرية: رصيد الأرشيف الوطني التونسي في ضوء الأزمات
75	• سماس سيد أحمد، دور الإعلام الجديد في التأثير على العلاقات الاجتماعية في الوطن العربي
83	• Ahmed Oumouss, Conservation intégrée du patrimoine archéologique et bâti au Maroc Réflexions autour de quelques approches managériales.

اجتاحت المغرب عبر التاريخ أوبئة وجوائح، أدت إلى انعكاسات اقتصادية واجتماعية، وأثرت سلبا على تطوره الديمغرافي، وكما أسهمت في تأخره أمام أوربا منذ القرنين 18 و 19م، ويحتل موضوع الجوائح والأوبئة والكوارث الطبيعية حيزا مهما في الكتابات الكلاسيكية والدراسات التاريخية المغربية المعاصرة، التي انصب اهتمامها الى الإجابة عن إشكالية تأثير الظواهر المناخية على الإنسان والدولة في تاريخ المغرب، ذلك أن مجال البحر الأبيض المتوسط عرف تغيرات مناخية كبرى، كانت من بين عوامل انتشار الأوبئة في المغرب.

انتشرت خلال الآونة الأخيرة جائحة فيروس كورونا عبر العالم، وسببت في أزمة صحية عالمية وصل صداها إلى المغرب، وجعلت الدولة تتخذ إجراءات الحجر الصحي بإعلان حالة الطوارئ الصحية في البلاد، ويطرح هذا الحدث الصحي الآتي تساؤلات تهم تاريخ الجوائح بالمغرب، ورصد أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، من خلال مقارنة تاريخ الأزمات الاقتصادية والصحية، التي عرفها العالم عبر التاريخ.

اهتمت الأستغرافيا المغربية بالكتابة حول تاريخ الجوائح والأوبئة، وتعددت مقاربات رصد الظاهرة الوبائية حسب الحقب التاريخية، ونجد كتاب جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين للأستاذ الراحل الحسين بولقطيب، الذي أبرز تأثيرها على مجتمع العصر الوسيط، مبرزا التمثل الذهني للجوائح عند المغاربة،¹ ويعتبر كتاب تاريخ الأوبئة والمجاعات في القرنين 18م و 19م للراحل الأستاذ محمد الأمين من الدراسات المهمة التي عمقت البحث في هذا الموضوع، واعتمدت على مصادر مختلفة ذات صلة بالجوائح،² وألف كتاب جماعي بعنوان المعرفة الطبية وتاريخ الأمراض في المغرب من تنسيق الأستاذة آسية بنعدادة، وأعطى مقارنة أخرى تشمل المنطقة المغاربية،³

¹ أنظر: الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، منشورات الزمن-المغرب، الطبعة الأولى، 2001م.
² محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات في القرنين 18م و 19م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكدال الرباط، الطبعة الأولى، 1992م.
³ أنظر: المعرفة الطبية وتاريخ الأمراض في المغرب، تنسيق آسية بنعدادة، الدار البيضاء، مؤسسة الملك عبد العزيز، الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2011م.

وألف الأستاذ بوجمعة رويان كتابا مهما، يقارب الموضوع من زاوية الطب الكولونيالي زمن الحماية الفرنسية على المغرب.¹

أثارت الأوبئة والجوائح فضول الكتابات الكلاسيكية، فمعظم الكتاب ينساقون وراء التفسير الغيبي لهذه الظاهرة، فقد دافع ابن زهر عن عجز الطب عن فهم مسببات بعض الأمراض وأرجعها إلى غضب الله، ونجد المخطوط المسمى ب:المقالة الحكيمة في الأمراض الوبائية سنة 1413م، وتحدث فيه عن الأمراض المنتشرة خلال هذه المرحلة،² وألف العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي سنة 1895م مخطوطا تحت عنوان: أقوال المطاعين في الطعن والطواعين.³ تلك أبرز الكتابات حول تاريخ الأوبئة بالمغرب، التي تناولت هذا الموضوع من زوايا مختلفة، حيث أعطت المصادر الكلاسيكية نظرة عن تمثل المغاربة لهذه الجوائح، وأرجعوها إلى مسببات غيبية، رغم أن تطور الطب مازال في مراحل الأولى.

أفرزت الجوائح بالمغرب نتائج وخيمة، حيث ارتفعت الأسعار وغلاء المواد الغذائية، وأدى إلى احتكار المواد الفلاحية من طرف المضاربين بالمدن الكبرى، وأسهمت في الكساد الاقتصادي، كما انعكست على البنية الديمغرافية بارتفاع الوفيات، وأثرت على انخيار التجارة الخارجية بعد قرار سلطات جبل طارق واسبانيا بإغلاق المحاور التجارية مع المغرب خلال القرن 19م، وشكلت الجوائح تهديدا لسلطة الدولة، وعملت على التدخل لصالح الفئات المستضعفة بتشديد مرستانات مراكش وسلا خلال العهد الموحد، واختار المخزن جزيرة الصويرة كمحجر صحي للحجاج الموبوتين سنة 1856م لمحاصرة تفشي وباء الطاعون، وتعددت تدابير المغاربة لمواجهة الأوبئة، فقد اهتموا بالاشتغال بالطب الشعبي في الأسواق المحلية، وعملت قبائل المغرب على خزن المحاصيل الزراعية بمؤسسات اكودار لمواجهة المجاعات والأوبئة، كما قامت الزوايا الدينية بإيواء المحتاجين وإطعامهم خلال الظروف العصيبة.

واعتمد المغاربة قبل الحماية على أساليب الطب التقليدي، ولم يواكبوا آنداك المستجدات الطبية في أوروبا إلا مع بداية التسرب الأوربي عبر قنوات التمثيليات الدبلوماسية بالمدن الساحلية، التي أرست ممارسات طبية بإقامة العيادات لفائدة رعاياها الأوربيين، وتعتبر مرحلة الحماية نقطة تحول لإرساء نظام صحي استعماري، ليستجيب لتطلعات المقاولات الفرنسية لضمان الاستغلال الأمثل للثروات الطبيعية، وتخوفت سلطات الحماية

¹ أنظر: بوجمعة رويان، الطب الكولونيالي بالمغرب 1912-1945م، منشورات الرباط نت، الطبعة الأولى، 2013م.

² أنظر: علي بن عبد الله بن محمد بن هيدور، المقالة الحكيمة في الأمراض الوبائية، مخطوط بالخزانة الحسنية، الرباط، رقم: 9605.

³ أنظر: العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي، أقوال المطاعين في الطعن والطواعين، مخطوط بالخزانة الحسنية، الرباط، رقم: 2054.

من تفشي الأمراض والأوبئة، وذلك لضمان الاستقرار السياسي والاجتماعي بالقبائل والحوضر المغربية، نظرا لافتقاد المغرب لنظام صحي حديث في السنوات الأولى للحماية الفرنسية، لأن الضرورة تقتضي حماية صحة جنود الاحتلال الفرنسي إبان حملات التهذئة بالمغرب، وأسست فرنسا مديرية الصحة العمومية لحصر الأوبئة المعدية، من خلال تعيين الأطباء المدنيين والعسكريين ضمن البعثات الطبية إلى البوادي، كما أسست سلطات الحماية المصالح الصحية بالبلديات والموانئ البحرية، ونظمت عمليات التلقيح للسكان ضد الطاعون منذ سنة 1918م.

وفي الختام، يسعد طاقم مجلة ليكسوس الالكترونية أن يضع بين يدي القارئ الكريم العدد 33 من المجلة، وأدرجت فيه ثلة من المواضيع المختلفة، وقد أسهم في اغناء محتوياتها باحثين من المغرب وخارجه، وهذا يعكس انفتاح مجلة ليكسوس الالكترونية على مختلف تخصصات العلوم الانسانية، وذلك لهدف تثمين التبادل المعرفي والعلمي بين الباحثين، وإيماننا من طاقم المجلة بضرورة ربط أواصر التعاون وتبادل الخبرات بين المهتمين في مختلف التخصصات، لتكون رافدا ومرجعا علميا للطلاب والباحثين بالجامعات المغربية.

وأملنا جميعا أن تكون هذه المساهمات العلمية إضافة بيبولوجرافية نوعية للقارئ الكريم، وذلك لتسليط الضوء عن بعض القضايا التاريخية، ونشكر كل من ساهم في إثراء هذا العدد من مجلة ليكسوس الالكترونية، وموعدنا سيتجدد إن شاء الله في العدد المقبل، لتواصل إصداراتها الالكترونية لتعم الفائدة جميع المهتمين بالمعرفة التاريخية داخل وخارج المغرب.

أبيهي محمد

مدير مجلة ليكسوس الالكترونية

الهجرة والأوبئة أو حينما يصرف "الدوفيس" (devais) مقابله أمراضا

الحسين بوالزيت
صحفي وباحث في تاريخ
الجنوب المغربي

مقدمة:

تعتبر الهجرة من بين العوامل التي تساهم في انتشار الأمراض والأوبئة في تاريخ المغرب وكذلك في كل مناطق العالم. ومن هذا المنطلق أقرت الدول والحكومات تدابير كثيرة بغية الحد من انتشار الأوبئة والأمراض في صفوف مواطنيها. وبالنسبة للمغرب فقد نجح إلى حد كبير في تقليص أعداد المصابين بالحمى الصفراء والتي انتشرت سنة 1810 بفضل الحصار الذي ضربه على جبل طارق، مكن المغرب في محاصرة الوباء في موطنه وحال هذا الاجراء دون تسربه إلى داخل البلاد، وينحصر الحيز الزمني لهذه المناسبة في الفترة الممتدة 1880 إلى 1939¹، وكما هو معروف فسنة 1880 تؤرخ لظهور الحمى الصفراء في حوض البحر الأبيض المتوسط، بينما تؤرخ سنة 1939 لعودة ظهور وباء التيفويد في المغرب وخصوصا في سوس.

يتضح من الحيز الزمني الذي تغطيه هذه المساهمة أنه يضم فترات تاريخية متباينة فرغم قصرها الزمني ولكنها في المقابل غنية من حيث الوقائع التي حدث فيها، وهذا ما سيجعل القارئ يتساءل عن الخيط الناظم الذي يجمع بينها، ومنذ البداية نشير إلى أن اختيارنا لهذه الفترة بالذات لم يكن اعتباطيا أو عشوائيا بل هنالك العديد من العوامل التي أملت، ويبقى القاسم المشترك بينها هو وباء التيفويد الذي ظهر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد أشار الناصري إلى ذلك عندما قال باقتضاب شديد "وبعد هذا كله (يقصد الموت بحمى الكوليرا) حدث الوباء بالحمى في

¹ - le Capitaine de la Boissière: Monographie sur les Ahl massa, Document C.H.E.A.M. N 437,1941p 43.

أعيان الناس وأمثالهم فهلك منهم عدد كبير"¹، وقد تسبب الوباء في موت الصدر الأعظم موسى بن أحمد في محرم 1296/1879². هذا الوباء عاود الظهور في سنة 1939 في سوس، وهذا ما يضع السياسة الطبية الكولونيالية الفرنسية على المحك خصوصا وإذا علمنا أن فرنسا كانت منشغلة بالحرب العالمية الثانية التي بدأت للتو، سنفهم العديد من القضايا والظواهر المرتبطة بظهور بعض الأمراض في نهاية الثلاثينيات من القرن بحيث أن فرنسا كرست كل جهودها لجبهات القتال مع النازية وحلفاءها، كما أننا سنفهم العديد من الاكراهات المرتبطة بصحة سكان مستعمراتها في شمال افريقيا بما فيهم المغاربة الذين وجدوا مرة أخرى في مواجهة الأوبئة والأمراض القاتلة على غرار سابق عهدهم.

1- من الشرق إلى الغرب أو في مسارات الموت:

يذكرنا الطبيب الفرنسي رينو أن البلاد كذلك نجت من الطاعون سنة 1804 بفضل طرد مركب قادم من الشرق وعلى متنه شخص موبوء³. وفي الربع الأول من القرن التاسع ضرب وباء الطاعون العديد من الدول المتوسطة ومنها مصر سنة 1806 وعاود اجتياحها سنة 1813 وفي سنة 1814 اكتسح مالطة تم عاود اجتياح مصر 1816⁴، واستمر في الفتك بها زهاء أربع سنوات. وانتقلت العدوى في نفس العام لتعم كل البلدان المتوسطة المتبقية مما شكل تهديدا حقيقيا للمغرب، الذي ما لبث الخطر المحدق يقترب رويدا رويدا منه عندما تاخم حدوده الشرقية. وبحلول سنة 1817 ظهرت أولى حالات الإصابة بالوباء في الجزائر لينطلق عداد الموت في احتساب الهالكين في هذا، وهكذا فقد سجل في اليوم الأول من انتشاره ما بين 40 و60 ضحية، ومن الجزائر تسرب الوباء إلى مدينة بونة ومنها انتقل إلى وهران ثم انتشر في كل نواحيها وذلك بفعل قوافل الفارين من جحيم العدوى. إذا كان المغرب قد نجى من غارات هذا الوباء بفعل سن العديد من التدابير والإجراءات القانونية والصحية وذلك بتوجيه من المجلس الصحي الدولي بطنجة فقد وثقت سجلات هذا الأخير أن "خونطة القناصل" عقدت اجتماعا طارئا عند تواتر الاخبار بظهور الطاعون في الجزائر

¹ - الناصري احمد بن خالد، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، 1954م، ج 9 ص 164
² - محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات في القرنين 18م و 19م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادال الرباط، الطبعة الأولى، 1992م، ص 274 وقد نقل عن رسالة لماتثيوس (27 دجنبر 1874) (Roll 12/T 61) وخاصة تقرير الطبيب الفرنسي أليارد (Allard) الذي زار مراکش ووضع تقريرا عن حالتها الصحية عام 1879. يخبرنا الأليارد في هذا التقرير (A.T./65) بأن الوباء أصاب جميع الفئات الاجتماعية، وسقط ضحيته له عدد كبير من الشخصيات المرموقة، لأنه فتك بالخصوص بالفقراء. وقد أسهب الأليارد في وصف مظاهر البؤس والفقر، وقال انه شاهد في الأزقة الكثيرين من المعوزين المتضوعين جوعا وان جثنت الضحايا كانت في قارة الطريق. وبجانب التيفويد، أكد وجود وباء الجدي.

³ - RAYNAUDE, (DR.L.): Étude sur les l'hygiène et la médecine, au Maroc, Alger, 1902, p 82

⁴ - البزاز محمد الأمين، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، 1992 ص 104.

كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وفي هذا الاجتماع تم إقرار العديد من التدابير سنورها كما جاءت في الدراسة القيمة التي قام بها محمد الأمين البزاز،¹ القيمة ومنها على سبيل المثال:

- فرض حجر صحي لمدة أربعة أيام على جميع المراكب القادمة من المشرق الإسلامي ومن دول المغرب الكبير، ولمدة يومين على المراكب القادمة من الموانئ الأوروبية فيما وراء جبل طارق.

- توجيه هذا القرار لعامل طنجة وأمين جماركها وكذلك لنواب القنصل بمراسي تطوان والعرائش والرباط والصويرة؛

- توجيه رسالة إلى السلطان لالتماس موافقته على القرار والعمل على تنفيذه، مع تذكيره بأن والده سيدي محمد

بن عبد الله سبق له، في ظروف مماثلة، أن أقام حزاما عسكريا بين مملكته والولاية الجزائرية.

- تعيين طبيب فرنسي مفتشا صحيا بمرسى مدينة طنجة لتعزيز المراقبة الصحية بها.

2- المخزن والطاعون في القرن 19م:

لا يشك محمد الأمين البزاز في استجابة المولى سليمان لهذه القرارات والسبب في ذلك ما عودنا عليه السلطان في مناسبات مختلفة، كما يستشف من أرشيفات المجلس الصحي الدولي بطنجة. بل أكثر من ذلك فقد أقر بجهل المغاربة - كما صرح بذلك - في العديد من المرات واعترف بجهل المغرب بشؤون الحجر الصحي معترفا في هذا الإطار للقنصل بخبرتهم في هذا المجال. وهذا من نستشفه في إحدى رسائله حين خاطبهم قائلا: «أنتم تعرفون كيف تتعاملون مع أهل الوباء في بياعتكم (كذا) ومشترياتكم وتجعلون الدراهم في الخلل وتحفظون كل التحفظ، والمسلمون لا يعرفون ذلك، ولا يتحفظون مثل تحفظكم منه وذلك فيه ضرر على المسلمين وعلى قنصوات النصارى بطنجة»².

نلاحظ من خلال هذه الرسالة أن المسلمون ويقصد بهم المغاربة، لا يعيرون اهتماما كبيرا للتدابير وإجراءات الوقاية من الأوبئة عكس النصارى والمقصود بهم الأوروبيون بصفة عامة، بل هنالك إقرار شبه تام بجهل المغرب حكما ورعايا بأساليب وتقنيات التعقيم التي كانت معروفة لدى الدولة الأوروبية، ومنها استعمال بعض المحاليل مثل الخل وغيره من المعقمات التي اكتشفت في أوروبا قبل وقت طويل من تاريخ إصدار رسالة المولى سليمان، كما كان السلاطين السعديون فيما قبل يعقمون الرسائل الواردة عليهم من الدول الأخرى، وكانوا يقومون كذلك بتعقيم الرسائل التي تفد عليهم من الأقاليم المغربية وخاصة الموبوءة منها.

¹ - نفسه، ص 105.

² - نفس الرجوع، نفس ص. 105.

سبقت الإشارة الى ان مصر قد اجتاحتها الطاعون سنة 1806 وعاود الظهور فيها سنة 1813 ، كما سجل وصوله إلى مالطة سنة 1814 ليعاود الظهور في مصر سنة 1816، في هذه الاثناء تسجل الوقائع التاريخية وقوف قارب انجليزي يسمى الطاج " بمضيق جبل طارق قادما من الإسكندرية سنة 1818، قارب الموت هذا ارتبطت به فيما بعد العديد من الوقائع الخاصة بانتشار وباء الطاعون في المغرب، هذه الوقائع يمكن الاطلاع عليها بتفصيل كبير في الصفحة 191 من كتاب الزياني المسمى بـ الروضة السليمانية إضافة إلى ما أورده الناصري في الجزء الثامن من كتابه المشهور الاستقصاء.¹

3- الهجرة من الشمال إلى الجنوب وانتشار الوباء:

قبل الحديث عن تسرب الوباء إلى ربوع سوس، وقبل الوقوف على ضرباته القاصمة فيه، وقبل الخوض في تفاصيل مراسيم وصول المفترس إلى مداشر وقرى السوس سوف نعرض قليلا على الأوضاع الداخلية في بعض مناطقه، كما وقبلها سنعرض على نموذج للكوارث الطبيعية التي مهدت لانكسار هذه الربوع واستسلامها لضربات الوباء، وفي هذا الإطار يورد محمد المختار السوسي في الجزء الثاني من رحلته في سوس والمعروفة بخلال جزولة تقيدا في غاية الأهمية ورغم قصره فإنه يعطينا صورة عامة عن الغلاء الذي عرفته ربوع سوس سنة 1822، هذا التقييد أورده السوسي أثناء حديثه عن رحلته إلى وجان بغية اللقاء مع علمائها الكبار ممن يحتفظون بخزائن الكتب والمخطوطات واثناء حديثه عن واحد من تلك الكتب التي كانت بحوزة أحد العلماء الامزوغاريين وهو سليمة الاسرة الامازوغارية العاملة، ومن بين تلك الكتب هنالك "كتاب في إحدى دفتيه، دخل العام 1237 هـ يوم الأحد فقحط الناس فيه قحطا شديدا فجهد نصف الناس أو أكثر، وبلغ الشعير في الأسواق 14 موزونة بأداء الثمن وستة أواق بالتأجيل والذرة خمس أواق بالنقد ونوى الخروب ب 12 موزونة للمطحون منه، وبلغ العسل 35 أوقية والسمن مثقالين ونصفا أو أكثر والزيت مثقالين وأركان 15 أوقية، والتمر عشر موزونات فأكثر ونواه موزونتين والبقول غالية والملح كذلك بمثقال وثلاثين موزونة واللحم غال، فإننا لله وغنا إليه راجعون"².

نستشف من هذا التقييد³ حول الغلاء أن جميع المواد الغذائية ارتفعت أثمانها جراء القحط الذي ضرب سوس مما نتج عنه اجهادا لساكنته التي عانت الويلات جراء تفشي الجوع والمجاعة، مجاعة لم تستثنى حتى الحيوانات بحيث بلغ ثمن "الثن مثقالين للحمل"⁴ وهو ما لن يستطيع الكاسبة تحمله اذا أخذنا بعين الاعتبار الغلاء الذي مس كل مستلزمات الحياة الضرورية منها وغير الضرورية، وبالنسبة لمحاصيل الحبوب فقد عرفت حسب نفس التقييد سنة السنة

1- الناصري احمد بن خالد، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، م.س، ج 8 ص 133

2- السوسي محمد المختار: خلال جزولة ج 2، الطبعة الاولى، دار الكتب العلمية، 2015، ص 172 .

3- هذا التقييد الذي أورده المختار السوسي، في خلال جزولة، ج 2، مصدر سابق، ص 173، ووجد في خزانة الاسرة الامزوغارية العاملة، واسم كاتبه هو عبد الله... وهو صاحب الضريح الذي في العوينة، وقد ترجم مع اهله الادوزيين في القسم الثالث من المعسول، انظر خلال جزولة، مصدر سابق، ص 173.

4- السوسي محمد المختار، خلال جزولة، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص، 172.

الموالية أي 1228/ 1823 تراجعاً كبيراً بحيث لم يدرس الناس إلا قليلاً جداً عام 1243 هـ في بعض الجبال و غارت المياه في جل الآبار مع أن الناس حرثوا قيده المذكور...¹. في هذه الأثناء وفي ظل هذه الظروف المعاشية القاسية سيعرف سوس انتشار وباء الطاعون.

تتحدث المصادر والمراجع التاريخية بانتقال وباء الطاعون إلى الجنوب المغربي وخاصة سوس بعد أن ضرب مناطق إيجاحان وعاصمتها الصويرة سنة 1819 ومنها سينقل في شتاء نفس السنة لاجتياح كل ربوع القطر السوسي، رغم أن المصادر والمراجع التاريخية التي تتحدث كثيراً عن وقائع ومخلفات وصول الطاعون المفترس إلى الجنوب وخاصة مناطق واد نول، فقد أورد محمد الأمين البزاز نصاً في غاية الأهمية وتحدث فيه صاحبه عن ضربات الطاعون في هذه المناطق، هذا النص كتبه كوشولي (cochelet) الذي يعتبر بطل غرق سفينة "لاصوفيا" الفرنسية وذلك أثناء مروره بقبائل ايت باعمران بحيث أنه كان شاهد عيان على حجم الدمار الذي أحدثه الطاعون في مداشر وقرى هذه الربوع ووصف ذلك بقوله: " ما لبثنا أن شاهدنا يمناً ويسرة قرى متشابهة لقرى واد نول ولو أنها أقل أهمية من، بيد أن كثيراً منها كانت مهجورة من طرف سكانها... وقد أخبرت بأن الطاعون فتك بها في وقت قريب، وأن العدد القليل ممن نجى من العدوى نرح عنها إلى جهات أخرى".

هذا فيما يخص المناطق الساحلية التي تحدث قنصل الولايات المتحدة الأمريكية عن ضربات الطاعون فيها وفتكه بأجساد السكان في غياب أية وسيلة للتطبيب والاستشفاء من الوباء الفتاك وخاصة في سنة 1820 التي تحدث عنها بقليل من التفصيل القنصل الأمريكي (J simpton) وبخمسين وستون ضحية في مراكش. هذا في الوقت الذي كانت تتمتع فيه مدينة طنجة ونواحيها بصحة جيدة، أما مدينة مراكش، فإن عدد الموتى فيها قد ارتفع ليلبغ 900 ضحية في اليوم، وسجلاً تراجعاً في 08 يناير 1820 إلى 300، بينما سجلت في الصويرة في نفس الفترة ما بين 15 و20 في اليوم الواحد كما نسجل أن الطاعون عات في الشياظمة وإيجاحان، وسجل فيها أفدح الخسائر، واستمر في الانتشار حتى ظهر في أكادير التي كانت معروفة ب سان كروا آنذاك. هذه المعلومات أوردها قنصل الولايات المتحدة الأمريكية ضمن مراسلة له من جبل طارق في نفس السنة. بخصوص المناطق الجبلية فلم تستثنى بدورها من ضربا الطاعون فقد أورد الأستاذ محمد الأمين بزاز نقلاً عن كودارد (Godard) أن الطاعون تفشى في أقاصي جبال الأطلس، وأجهز على الكثير من الأرواح تصل في بعض الأحيان إلى القضاء على جميع أفراد العائلة الواحدة، وفي هذا الصدد

¹ - نفسه، ص 173.

سجل أن عائلة جبلية واحدة هي نجت من الوباء وورث جميع أراضيها بعد أن أفنى الطاعون كل من كان بها من بشر. ولكن رغم ذلك يمكن أن نسجل أن درجة الفتك في الجبال كانت أقل من نظيرتها في السهول نظرا لتضافر العديد من العوامل ومنها على الخصوص تقلص أعداد المهاجرين وصعوبة الانتقال بين الجبال والمسالك الوعرة، وقد تحدثت عنها بقليل من التفصيل حين أورد أن الطاعون كان يفتك بخمس ضحايا، وسجلت المنوغرافية الكولونيلية نفشي الوباء في سفوح جبال الاطلس الكبير وخاصة في قبائل اينولتان. وعلى العموم فطاعون هذه الحقبة لم يكن شرسا كسابقه، ولو أنه بطش بجوالي ربع سكان المغرب.

4- ماست من القرن 19 إلى منتصف القرن 20: الهجرة والأوبئة

رصد انتشار الأوبئة في تاريخ المغرب باتت اليوم مسألة متيسرة ومتطورة نوعا ما بالنظر إلى العديد من المتغيرات ومنها بطبيعة الحال ما يتصل بالأرشيف والوثائق التي بات معظمها متوفرا ومتاحا لعموم الباحثين والمشتغلين في مختلف حقول المعرفة الإنسانية ومنها بطبيعة الحال حقل التاريخ، الذي سيعرف لا محالة انتعاشة جديدة بفعل رفع طابع السرية على الوثائق والمستندات والأشرطة الصوتية وتسجيلات الفيديو وألبومات الصور وغيرها من الوثائق الفترة الكولونيلية التي كانت تدخل في نطاق الوثائق السرية، والتي لا يمكن أن يطلع عليها الا النزر القليل. من بين هذه الوثائق نجد وثائق الأرشيف الفرنسي وخاصة منه الارشيف الدبلوماسي لمركز نانث ومركز فانسان وايكس أون بروفونس قبله بقليل. هذا الأرشيف يمكننا عند استغلاله من تفكيك شفرات العديد من الألغاز المرتبطة بالعديد من الظواهر التاريخية التي كان يلفها الغموض وعدم اليقين في ظل غياب الوثائق التي يمكن أن يعتمد عليها الباحث ل طرح أسئلته وتعزيز نتائجه وخلصاته.

من بين تلك الظواهر نجد بطبيعة الحال الهجرة وعلاقتها بانتشار بعض الأمراض المعدية مثل داء السل الذي انتقل إلى المغرب بواسطة العمالة المغربية التي كان تنشط في مصانع الصناعات الثقيلة الفرنسية وخاصة في الضاحية الباريسية مثل Gennevilliers و Argenteuil و saint Etienne فمصانع هذه الضواحي عرفت وفود الكثير من العمال المغاربة في الأربعينات من القرن العشرين، ومن بين المناطق التي وفدت منها عناصر هذه العمالة نجد قبيلة ماست في الجنوب المغربي، التي انتقلت منها أعداد كبيرة من العمال الذين عهد اليهم تحريك الآلات الصناعة الفرنسية الثقيلة أثناء الحرب العالمية الثانية وساهمت في تنشيط معامل فرنسا المدمرة جراء تلك الحرب.

لقد كان لعائدات المهاجرين المالية، أن اعتبرت فضلا كبيرا في اعتلاء ماست للمراتب الأولى من بين أغنى مناطق دائرة تيزنيت في الفترة الكولونيالية بفضل تحويلات مهاجريها من العملة الصعبة، وذلك على شكل ارساليات مالية بالفرنك الفرنسي، وقد بلغ عدد المهاجرين الماسيين في 31 مارس 1940 ما يقارب من 258 مهاجر يتوزعون بين فرنسا ومستعمراتها في شمال افريقيا بما فيها الجزائر وتونس، بعد أن نجحوا في الوصول إلى الديار الفرنسية ومستعمراتها الأخرى بطريقة سرية. مصدر هذه الأرقام التي أوردناها هو ملفات تسوية الوضعية القانونية للمهاجرين التي دشنتها فرنسا في تلك الفترة للحد من ظاهرة الهجرة السرية، ومن هنا قامت بإحصاء المهاجرين السريين في الأراضي الفرنسية بما فيها مستعمراتها، ويبين هذا الجدول بلدان تواجدها وأعدادها بالأرقام:¹

البلد	عدد المهاجرين
فرنسا	188
الجزائر	102
تونس	12
أخرى	53

حسب الكابتان دو لبواسيير (le capitaine de La Boissière)، نلاحظ أن نسبة 20,04 من مجموع اليد العاملة الماسية في تلك الفترة التي كانت تقدر ب حوالي 2110 فردا، كانت تتواجد في الخارج، هذه الأعداد المهمة من المهاجرين تفسر التدفق الكبير للأموال على القبيلة عن طريق الارساليات المالية التي كانت تفد عليها على شكل حوالات بريدية، التي بلغت في الثلث الأول من سنة 1940، 117 حوالة و برقم معاملة مهم جدا بلغ حوالي 79,956 فرنك فرنسي، في مقابل 97,668 فرنك لايت تيزنيت. هذا الجدول يوضح تدفق الأموال على ماست حسب البلدان:²

Pays	Origine des mandats	Montants	Total
France	Gennevilliers	10.994	57.119
	Argenteuil	16.085	
	Saint Etienne	2.890	

¹- le Capitaine de la Boissière: Monographie sur les Ahl Massa, document C.H.E.A.M. N 437, avril 1941, p 31

² - Le Capitaine de la Boissière : Op.cit., p 32.

	Divers	27.150	
Algérie	Ouenza	16.850	19.580
	Alger	1.230	
	Oran	1.500	
Tunisie		3.260	3.260
Total Général			79.959 Frs

Source : le capitaine de La Boissière, monographie tribus des Ahl Massa par- Document du centre CHEAM n° 437 du 17 avril 1941.

حسب دو لبواسير ، الذي كان يشغل منصب نائب رئيس دائرة تيزنيت للشؤون الأهلية والذي أنجز منوغرافية تحت عنوان قبيلة أهل ماسة، ففي سنة 1917 وصلت مبالغ الحوالات المرسلة من طرف عمال ايت ماست إلى ذويهم إلى 680 فرنك فرنسي في المتوسط، وسجل وجود حوالات مالية تتجاوز مبلغ 10 الالاف فرنك. كما سجل كذلك رواج مبالغ مالية أخرى لم تحتسب عليها الضرائب وتتعلق بالأموال التي ينقلها العمال معهم أثناء قضائهم لعطلهم السنوية، وبخصوص مساهمة أيت ماست في الوعاء الضريبي الفرنسي فقد بلغت الرسوم الضريبية المستخلصة على الأموال التي أرسلوها في سنة 1939 حوالي 75, 275.137 فرنك فرنسي، فتدفق هذه الأموال يبين أهمية الهجرة واثرها الإيجابي على الاقتصاد المحلي، وذلك راجع إلى تفضيل العمالة الماسية الاشتغال في الصناعات الثقيلة وفي مناجم المعادن التي تؤدي أجورا مرتفعة جدا، إضافة الى امتيازات مالية مهمة أخرى على شكل تعويضات عن العجز والأقدمية. ولكن ولوجهم ذلك لم يكن بمحض الصدفة بل كان نتيجة قوتهم الجسمانية المعروفة عنهم منذ القدم إضافة إلى اعتيادهم على إنجاز الاشغال الشاقة. ولكن مع الأسف يورد دو لبواسير (*le capitaine de La Boissière*) في منوغرافيته التي أشرنا إليها، أن عددا كبيرا من أفراد هذه العمالة التي تشتغل في الصناعات الثقيلة الفرنسية كانت تنقل معها عدوى مرض السل إلى قبيلتهم الأصلية أثناء قضاء عطلهم السنوية. انه داء "دوفيس (devais)" بطعم ونكهة العدوى والمرض.

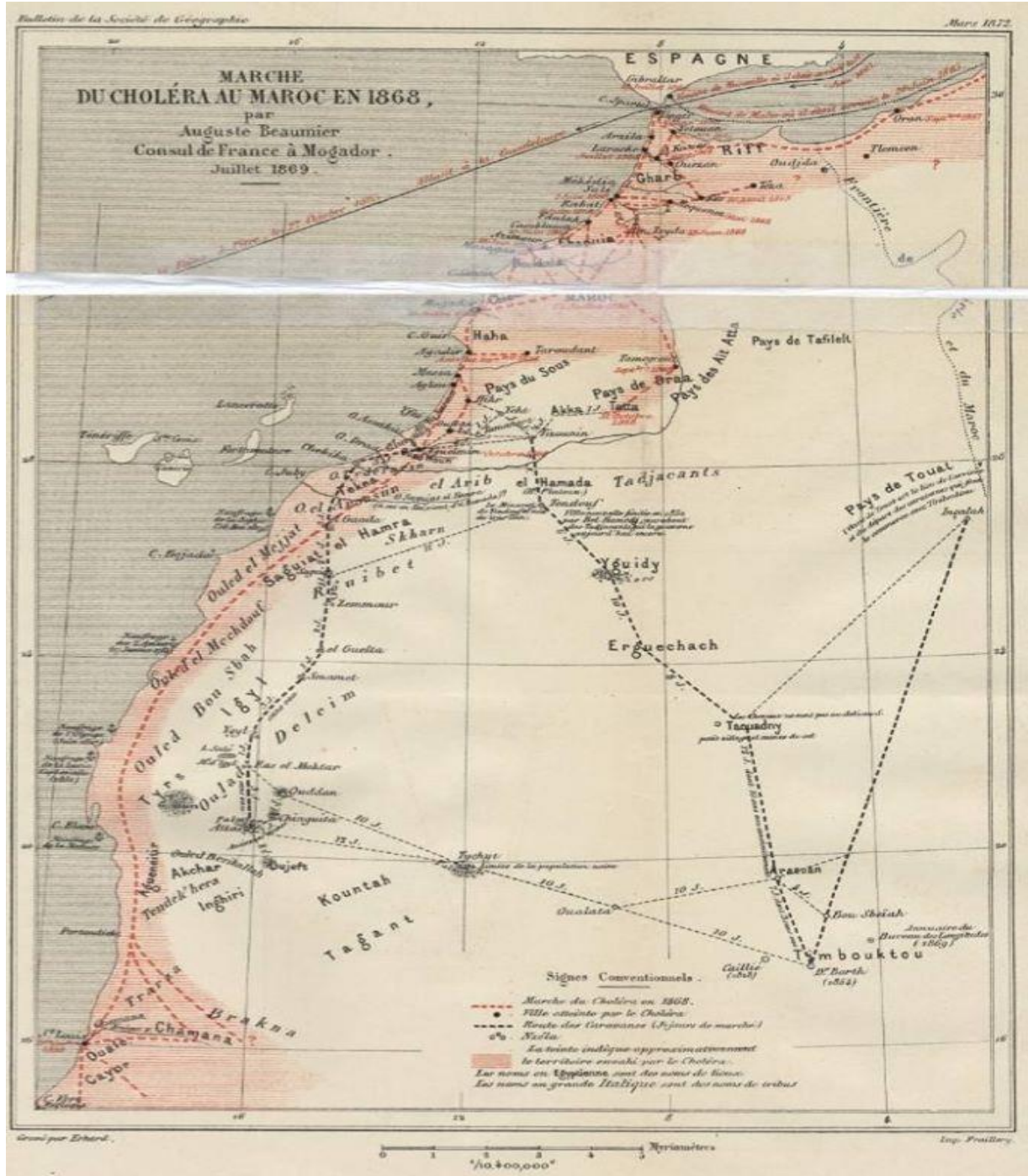


الصورة رقم 1: من ذاكرة الهجرة بتيزنيت: طوابير من العائلات بمكتب الشؤون الأهلية تنتظر تسلم تحويلات مالية من عمال مهاجرين بفرنسا. المصدر: جريدة

Excelsior : journal illustré quotidien : informations, littérature, sciences, 3 février 1935.



الصورة رقم 2: الإشراف على عمليات التطهير خارج الحجر الصحي بفاس سنة 1922م.



خريطة تهم مجال انتشار وباء الكوليرا بالمغرب سنة 1869م، وضعها القنصل الفرنسي (Auguste Beaumier) لمدينة موكادور.

Marche du Choléra au Maroc en 1868, par Auguste Beaumier Consul de France à Mogador. Juillet 1869

المصدر:

<https://digital.library.illinois.edu/items//ca-0569601e946-0133-1d3d-005-53103390/C2892%2C54792%xywh=-1379%2C-2740&r=0&cv=0&s=0&m=0&#?c=0>



Hanns
Seidel
Stiftung



يُنظم مركز تكامل للدراسات والأبحاث بشراكة مع مؤسسة
هانس زايدل، ندوة تفاعلية في موضوع

"أي دور للمؤرخ في فهم أزمة كورونا؟"

يوم السبت 2 ماي ابتداء من الساعة العاشرة ليلا

بمشاركة:

د. الطيب بياض

أستاذ التاريخ المعاصر والراهن
كلية الآداب عين الشق



د. عبد الكريم الجويطي

روائي وباحث في التاريخ



د. سعيد الحاجي

أستاذ التاريخ المعاصر
الكلية متعددة التخصصات تازة



د. محمد مزيان

أستاذ التاريخ المعاصر بكلية الآداب
والعلوم الانسانية القنيطرة



مباشرة على صفحة مركز تكامل للدراسات والأبحاث



LIVE

السبت 2 ماي 2020

ابتداء من الساعة 22:00 ليلاً

ثورة أبي يزيد النكاري: دراسة في عوامل النجاح والإخفاق

أحمد العثماني
باحث في التاريخ والفكر الإسلامي
المغرب الأقصى

مقدمة :

المفكر المغربي محمد سبيلا بأنها "مفهوم يحيل إلى تحرك الجماهير بتأطير و قيادة نخبة مختلفة نحو إسقاط النظام القائم عبر أسلوب القوة"³. الملاحظ أن المشترك بين هذه التعاريف هو تأكيدها على دور العنف و القوة باعتبارهما شرطا في الثورة، غير أن هذا الشرط ليس مطلقا فهناك ثورات استطاعت بعضها الاطاحة بالأنظمة دون استخدام القوة، فكانت سلمية بالكامل كالثورة الإيرانية و التونسية و المصرية، لذلك عرفها المفكر الفلسطيني عزمي بشارة بأنها "تحرك شعبي واسع خارج البنية الدستورية القائمة أو خارج الشرعية، يتمثل هدفه في تغيير نظام الحكم القائم في الدولة"⁴، بغض النظر عن طبيعتها هل كانت مسلحة أو سلمية. و إذا كانت هذه التعاريف، ذات البعد السياسي و الاجتماعي، للثورات مرتبطة بالعصر الحديث و خاصة القرن

في بداية هذه الدراسة لابد من التوقف عند تعريف الثورة، والذي يتسم بالتعدد، فالمفكر الأمريكي كرين برينتن يعرفها بذلك "الاستبدال العنيف لمجموعة ما مسؤولة عن إدارة كيان سياسي إقليمي بمجموعة أخرى لم تكن حتى ذلك الحين تدير تلك الحكومة، و ثمة معنى آخر: الاستبدال الثوري لمجموعة بمجموعة أخرى في انتفاضة عنيفة أو انقلاب أو عصيان مسلح أو نوع آخر من الخيانة"¹. أما المفكر الإنجليزي جوردون مارشال فيعرفها بأنها "أحداث نادرة الوقوع نسبيا و لكنها هامة من الناحية التاريخية يتم خلالها قلب النظام السياسي و الاجتماعي كلية، و ذلك باستخدام وسائل عنيفة عادة ثم يتم إعادة بنائه على أسس جديدة بقيادة جديدة"². و يعرفها

³ - محمد سبيلا، موسوعة المفاهيم الأساسية في العلوم الإنسانية و الفلسفة، منشورات المتوسط، ميلانو، ط 1، 2017 ص 176

⁴ - عزمي بشارة، في الثورة و القابلية للثورة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ط 1، ص 29

¹ - كرين برينتن، تشريح الثورة، ترجمة سمير الجلي، دار الفارابي، لبنان، ط 1، 2009، ص 24

² - جوردون مارشال، موسوعة علم الاجتماع، م 1، ترجمة محمد الجوهري و آخرون، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط 1، 2000، ص 472

الدوناتيين⁴ إبان الامبراطورية الرومانية ، و في التاريخ العربي الاسلامي ثورة الحسين⁵ و ثورة القراء⁶ ... وفي التاريخ الحديث الثورة الأمريكية و الثورة الفرنسية والثورة الروسية و الثورة الإيرانية.

والثورة التي سادرسها حدثت في بلاد المغرب ، بعد تمكن الإسلام منها ، في القرن الرابع الهجري ، وبالضبط في افريقية و شرق المغرب الأوسط⁷ ، و هي ثورة أبي يزيد النكاري المعروف بصاحب الحمار ، باعتبارها من أشهر الثورات التي أثرت في تاريخ بلاد المغرب .

وسأحاول في هذه الدراسة الإجابة على فرضية أن نجاح الثورة مرتبط بمدى قدرة زعمائها على التعامل بحكمة مع عوامل النجاح و الإخفاق التي تحيط بمسارها ، وخاصة قدرتهم على تجاوز اختلافاتهم المذهبية و الطائفية و الأيديولوجية لبناء جبهة موحدة تدبر اختلافاتها و تعدديتها بحكمة ، حتى تتمكن من مواجهة السلطة القائمة ، و على مدى قدرتهم على الاستمرار في نفس السياسة عند ظهور بوادر نجاح الثورة ، حتى لا تلتف عليها السلطة و توجه ضربة قاضية لها و تحول مسار الثورة من النجاح إلى الإخفاق.

التاسع عشر¹ و القرن العشرين ، بحيث لا يمكن الحديث عن الثورة بهذه المعاني قبل هذه الفترة ، فإنها - باعتبارها أحداثا تاريخية - قديمة قدم الاجتماع البشري لذلك لم تتردد الكتابات التاريخية في استخدامها "كتسمية على عدد كبير من الظواهر المختلفة في شدتها و التي تمتد من أي تحرك مسلح - أو حتى غير مسلح - ضد نظام ما إلى التحركات التي تطرح إسقاط النظام و استبداله"².

فبالنسبة للمؤرخ فالثورات ظاهرة تاريخية ارتبطت بتاريخ الاجتماع البشري ، عرفتها البشرية منذ القدم، مرتبطة بتشكيل الدول و الإمبراطوريات، فحدث أن الفئات المتضررة من الوضع القائم و المتأثرة بأفكار و مبادئ جديدة حول إعادة تنظيم الدولة بما يحقق العدالة لها، كانت تعلن ثورتها على السلطة التي تحملها مسؤولية ذلك الوضع القائم.

فالحديث عن الثورة يحيل الى فاعلين اثنين هما السلطة و الفئات الاجتماعية المرتبطة بها ، المستفيدة من الوضع القائم من جهة ، ثم نقيضها و هي المعارضة بأفكارها المختلفة و ما يرتبط بها من فئات اجتماعية متضررة من ذلك الوضع الذي ترغب في تغييره ، و إقامة نظام جديد مكانه يحقق العدل من جهة أخرى . و الأمثلة عديدة أشهرها ثورة سبارتاكوس³ و ثورة

1- في دراسته لهذه الفترة لاحظ المفكر إيريك هوبزباوم أن التغيير الشامل هو الذي يميزها لذلك وضع لكتابه عنوان يعكس ذلك فعنوانه عصر الثورة ، ترجمة فايز الصياغ ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، ط 2 ، 2008 ، ص 36

2- عزمي بشارة ، في الثورة و القابلية للثورة ، ص 12

3- تعرف بثورة العبيد الثالثة انظر ألدو سكيافونه ، سبارتاكوس : السلاح و الانسان ، ترجمة د أماني فوزي حبشي ، مشروع كلمة للترجمة ، أبو ظبي ، ط1 ، 2018

4 - François Decret , L Afrique du nord dans l antiquité, Payot , Paris , 1981 , P 294 .

انظر أيضا محمد المبكر ، شمال افريقيا القديم : حركة الدوارين و علاقتها بالدوناتية ، منشورات كلية الاداب بالرباط ، 2001 ، ص 171

5- ابن الاثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط 1 ، 2012 ، ص 278 ، و أيضا أبو الفرج الاصفهاني ، مقاتل الطالبين ، تحقيق السيد أحمد صقر ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، ط 4 ، 2006 ، ص 84

6- خليفة بن خياط ، تاريخ ابن خليفة ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، دار طيبة ، الرياض ، ط 2 ، 1985 ، ص 286 ، و أيضا الطبري ، تاريخ الرسل و الملوك ، 6م ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ، ط 2 ، 1971 ، ص 334

7- تونس و شرق الجزائر حاليا

للأحداث سوداوية تعكس حالة خصومة للثورة و مولاة للدولة الفاطمية.

وروايتها للأحداث بتلك الطريقة كان لها هدفان ، أولهما أن ما حدث كان ابتلاء من الله لأنصار الفاطميين حتى يميز الخبيث من الطيب و الصادق من الكاذب و ليمحص قلوب الموالين لآل البيت ... و ثانيهما هو أن الثورة ما هي إلا تصديق لنبوءة الإمام المهدي الذي سبق أن تنبأ بحدوث الثورة و الحدود القصوى التي ستصل إليها ، وما الأحداث إلا تأكيد لنبوءة المهدي المؤيد من الله و عصمة الأئمة المكشوف لهم الغيب ، والهدف النهائي تثبت شرعية حكم الفاطميين باعتباره تجسيدا لإرادة الله .

ثم المصادر الإباضية التي تعاملت مع صاحب الثورة باعتباره خارج عن المذهب الحق ، بعد تخليه عن المذهب الإباضي وتبنيه للمذهب النكاري ، لذلك لم تعتبره نائرا خارجيا سعى لتحقيق العدل و إنما مجرد مفسد في الأرض و متعطش للدماء ، و بدورها أوردت روايات أغلبها تقدر في ثورته و سعت لسحب الشرعية الأخلاقية و السياسية عنها ، غير أن ما يميزها عن الرواية الفاطمية أنها أوردت في بعض الأحيان روايات ذات منحى إيجابي تساعد في وضع صورة أفضل للثورة.

ثم المصادر السنية التي يمكن التمييز فيها بين نوعين :

-النوع الأول : مصادر تأثرت بالروايات الفاطمية حيث اعتمدتها دون تمحيص أو تدقيق ، سواء كانت مصادر مشرقية كابن الاثير و المقرئ ، أو مصادر مغربية كابن الخطيب و ابن خلدون ... ولم تنتبه هذه المصادر إلى أن روايات الفاطميين هي روايات الخصوم التي " تقف من أبي يزيد موقف العدو

و ثورة أبو يزيد تشكل نموذجا اجتمعت فيه حالة الإيجاب و السلب في تدبير عوامل النجاح و الإخفاق المحيطة بها ، فقد حققت نجاحا عندما استغلت بشكل جيد عوامل النجاح ، لتتحول إلى إخفاق عندما لم تستطع الاستمرار على نفس الطريق ، وتبنت سياسات كانت عبارة عن عوامل إخفاق و فشل في النهاية .

و للإجابة على هذه الفرضية لابد من دراسة الثورة من خلال التعريف بزعيمها من حيث المولد و النشأة و التكوين ثم الأسباب المفسرة لقيامها ثم المراحل التي مرت بها ثم النتيجة التي حققتها ، مجيبا عن السؤالين المركزيين و هما : ما العوامل المفسرة لنجاح ثورة أبي يزيد في بداياتها ؟ و ما العوامل المفسرة لإخفاقها في النهاية ؟

و قد اعتمدت في هذه الدراسة على مصادر متنوعة و مراجع عاجلت هذه الثورة في إطار دراستها لتاريخ بلاد المغرب . و يجب التنبيه بداية إلى إشكالية مهمة من الناحية المصدرية تؤثر سلبا على المعالجة الموضوعية لمسار الثورة، فكل المصادر التي كتبت عن ثورة أبي يزيد كانت من غير فرقته أو أنصاره و إنما من الفرق الأخرى التي أغلبها ناصبته العداة بسبب الاختلاف المذهبي والسياسي . فكانت إما مصادر فاطمية والتي تناولت هذه الثورة بتفصيل في إطار التأريخ للدولة الفاطمية، وروايتها لأحداث الثورة تميزت بتحيز كامل للدولة وبتحامل شديد على صاحبها ، فقد جعلت من هذه الحركة مجرد تعبير عن استمرارية حالة معاداة آل البيت عند الخوارج، فاعتبرته ناصبيا زنديقا خرج للإفساد في الأرض لا غير ، لذلك كانت رواياتها

مكتوب لفرقة أبي يزيد توضح رواية هؤلاء للأحداث و آرائهم الكلامية و الفقهية تساعدنا في وضع دراسة موضوعية للثورة . و مع ذلك فقد حاولت دراسة هذه الثورة دراسة موضوعية ، بالإعتماد على منهج القراءة التركيبية للنصوص المصدرية مع استخدام آلية النقد في التعامل معها ، لذلك استبعدت الروايات التي تتحدث عن الفظائع المفترض أن أبا يزيد قد ارتكبها ، لكونها جاءت من الخصوم ، الذين كان غرضهم نزع أي مشروعية أخلاقية عن هذه الثورة من جهة ، ومن جهة أخرى لا نجد لها ذكرا في مصادر أخرى لم تتخذ منه موقفا مسبقا سواء تأييدا أو معارضة ، و كان غرضها رواية الأحداث كما وقعت³ . و الهدف من ذلك الخروج بدراسة أكثر موضوعية لهذه الثورة وعن عوامل نجاحها بداية و إخفاقها نهاية .

أولا : التعريف بصاحب الثورة

1 - المولد و النشأة :

تتفق المصادر على أن أبا يزيد من بني يفرن إحدى أهم فروع قبائل زناتة البترية⁴، التي لعبت دورا سياسيا كبيرا في تاريخ بلاد المغرب ، و" أصله من قسطنطينة من بلاد الجريد* حيث مضارب زناتة هناك"⁵. أما عن نسبه فهو " مخلص بن كيداد بن سعد الله بن مغيث بن كرمات بن مخلد بن عثمان بن وريمث بن حونيفر بن سميران بن يفرن بن جانا و هو زناتة"⁶.

الذوذ، فهو عندهم الدجال الذي يدعو الى الكفر في آخر الزمان"¹ ، وبالتالي وجب الاحتياط في أخذ رواياتهم و التعامل معها بشكل نقدي.

-النوع الثاني : مصادر كانت أقل تحاملا عليه و عملت على تزويدنا بروايات أكثر موضوعية للأحداث بعيدا عن أسلوب المبالغة ، و من أهمها كتب تراجم المالكية و التي ساعدت في فهم مسار الثورة بشكل أفضل سواء من ناحية أسباب الثورة ، والتي تغافلت عنها المصادر الفاطمية و الإباضية ، أو من ناحية مراحل الثورة و ما رافقها من أحداث وخاصة طبيعة السياسة التي انتهجها صاحب الثورة مع القوى الفاعلة داخليا و خارجيا بعيدا عن المغالاة ، فتحدثت عن إيجابياته و سلبياته بطريقة عادلة . ثم ابن عذارى الذي اتخذ نفس هذا المنحى في دراسته للأحداث ، فجاء بروايات تعطي صورة أكثر شمولية عن الثورة ، فتحدثت عن أسبابها و هذا ما أهملته الروايات الفاطمية عمدا ، وكذا موقف مختلف الفرقاء وخاصة المالكية منها ، ثم مسار الثورة و نتائجها ، متجاوزا الروايات التي تتحدث عن الفظائع التي من المفترض انه ارتكبها في حق ساكنة المنطقة ، كما صورتها المصادر الفاطمية و الإباضية. و يرجع ذلك لطبيعة المصادر التي اعتمد عليها في تناوله لأحداث الثورة و هي مصادر غير فاطمية و خاصة "ابن الرقيق و ابن سعدون"². ومع ذلك تظل الثغرة المصدرية قائمة في ظل غياب أي تراث

¹- سعد زغلول ، تاريخ المغرب العربي ، ج 1 ، دار المعارف ، الاسكندرية ، 1993 ، ص 175

²- سعد زغلول ، المرجع السابق ، ص 174

³ - مثلا القاضي عبد الجبار لم يتحدث نهائيا عن تلك التجاوزات المفترض أن الثوار قاموا بها ، انظر تثبيت دلائل النبوة ، م 2 ، تحقيق عبد الكريم عثمان ، دار العربية ، بيروت ، ص 602

⁴- درجت المصادر و المراجع التاريخية عند حديثهم عن قبائل البربر في بلاد المغرب على تصنيفهم إلى جذمين عظيمين هما البتر و البرانس ، متنافسين حول

حكم بلاد المغرب انظر أحمد العثماني ، دور الفتوحات العربية الاسلامية في التحول الحضاري لبلاد المغرب ، دار الأكاديميون ، الأردن ، ط 1 ، 2018 ، ص 37

⁵- سعد زغلول ، تاريخ المغرب العربي ، ج 1 ، ص 120

*- تقع في الجنوب الغربي لتونس

⁶- ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 5 ، بدون تاريخ ، ص 461 ، واعتمد ابن خلدون رواية ابن حزم في كتابه العبر ، م 7 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 2 ، ص 16 ، أما ابن

بداياته كان معتنقا للمذهب الإباضي الذي نشأ و تتلمذ على أصوله و أصبح "مجادلا عنه معلما للصبيان"⁵ ، و قد كان يعد من أعلام المذهب الإباضي و من أقران ابن زرقون⁶ أحد رجالات المذهب الكبار ، والذي تتلمذ معه على يد شيوخ المذهب في سجلماسة⁷. في هذه المدينة حدث له تحول كبير في انتمائه المذهبي حيث انفصل عن المذهب الإباضي و انضم إلى المذهب النكاري⁸ ، الذي أصبح من أهم أعلامه و أشهرهم على الاطلاق . و ترجع المصادر الإباضية سبب هذا التحول إلى سلوك ذو بعد أخلاقي تعرض له هو و رفيقه ابن زرقون في فترة إقامتهما بسجلماسة ، فعندما " كانا ذات مرة سائرين في بعض حوائجهما ، فصادفا بعض أهل الدعوة فاستضافاهم فأخافوهما ولم يحسنوا ضيافتهما، فتدلجج في نفس أبي يزيد شيء.. ثم أنهما مرا يقوم من النكار فاستضافاهم فأضافوهما بأحسن ضيافة . فقال أبو يزيد لابي الربيع : يا أبا الربيع ألا ترى ما بين الرجال و الرجال ، فهل لك في الرجوع بنا إلى مذهب هؤلاء القوم؟ فقال له أبو الربيع لست أريد الدنيا ولو كانت

و لا تذكر المصادر سنة مولده و إنما تتحدث عن ظروف ولادته ، فنذكر أن والد أبا يزيد "كان يختلف الى بلاد السودان لتجارة فولد له بها أبو يزيد من جارية هوارية"¹ . لكن يمكن تقدير ذلك بعملية حسابية بسيطة ، فهو عندما أعلن عن الثورة في سنة 332 هـ كان عمره ستون سنة ، فإذا أخذنا سنة إعلان الثورة وطرحنا منها سنه آنذاك نحصل على سنة مولده و هي 272 هـ ، أي قبل قيام الدولة الفاطمية بعشرين سنة . وبعد ولادته في بلاد السودان أعاده والده إلى توزر* التي " نشأ بها و تعلم القرآن"² .

2 - الانتماء المذهبي لأبي يزيد

لقد كانت من نتائج الفتوحات العربية الاسلامية للمنطقة دخول مختلف الفرق الاسلامية إليها سواء أهل السنة و الجماعة أو الشيعة أو المعتزلة أو الخوارج³، الذين كان لهم تأثير كبير في الأحداث التي عرفتها بلاد المغرب منذ ما يعرف بثورة البربر⁴ .

ولقد نشأ أبو يزيد في بيئة تعتنق آراء فرقة الخوارج و من داخل هذه الفرقة خضع فعل التمذهب لديه للتطور . ففي

عداري فيعتمد نفس النسب مع اختلاف طفيف فيقول هو مخلد بن كيداد بن بن سعد الله بن مغيث بن كرماني بن مخلد بن عثمان بن وريمث بن بتواسن بن سميدان بن يفرن و يفرن هو أبو الكاهنة ، و ينتسب إلى جانا بن يحيى أبو زناتة كلها " ، البيان ، م 1 ، تحقيق بشار محمد عواد ، دار الغرب الاسلامي ، تونس ، ط 1 ، 2013 ، ص 228 .

1- ابن الاثير ، الكامل ، م 7 ، تحقيق خيرى سعيد ، دار التوفيقية ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص 185 . ابن خلدون ، كتاب العبر ، م 7 ، ص 16 ، ابن حماد ، أخبار بني عبيد ، تحقيق التهامي نقرة ، دار الصحوة ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص 53 .

*- تقع في الجنوب الغربي لتونس

2- ابن الاثير ، الكامل ، م 7 ، ص 185 ، ابن خلدون ، العبر ، م 7 ، ص 16 ، ابو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، ص 133

3- الفرد بل ، الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، ط 3 ، ص 134

4 - قام بها البربر الخوارج في عهد هشام بن عبد الملك سنة 122 هـ واستمرت إلى جودود 125 هـ ضد تسف ولاة بني أمية ، ورغم تمكن الدولة الاموية من القضاء عليها فقد أدت إلى بداية انفصال المنطقة عن حكم الخلافة في

المشرق للمزيد أنظر حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب و الاندلس ، دار

الرشاد ، القاهرة ، ط 5 ، 2000 ، ص 72

5- ابن حماد ، تاريخ بني عبيد ، ص 54

6 - أبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي من أبرز أعلام الإباضية في بلاد المغرب و عاش في القرن الرابع الهجري انظر ترجمته في سير الأئمة و

أخبارهم لابن زكريا ص 193

7- الشماخي ، السير ، ج 1 ، تحقيق أحمد بن سعود السيابي ، وزارة التراث القومي و الثقافة ، سلطنة عمان ، 1987 ، ص 237 ، الدرجيني ، طبقة مشايخ المغرب ، تحقيق ابراهيم طلاي ، مطبعة البعث ، فسنطينة ، بدون تاريخ ، ص

97 .

8- سبب ظهور الفرقة النكارية حسب المصادر الإباضية يرجع الى خلاف داخل إمارة بني رستم بتاهرت حيث رفض بعض مشايخ الإباضية إمامة عبد الوهاب

بن عبد الرحمان بن رستم الذي لم يلتزم بشرط ألا يقضي أمرا دون جماعة معلومة بمعنى أرادوا تحويل ممارسة الشورى من فعل اختياري الى فعل اجباري

عبر مؤسسة معلومة تراقب أداء الحاكم . وكان ذلك تفكير متقدم غير أنه للأسف لم يخضع لتطور تاريخي . انظر ابن زكريا ، كتاب سير الأئمة ، تحقيق اسماعيل العربي ، دار الغرب لاسلامي ، بيروت ، ط 2 ، 1982 ، ص 87 ، الدرجيني ، طبقات المشايخ ، ص 48 ، الشماخي ، السير ، ج 1 ، ص 130

لقد كانت سياسة التسامح و التعايش بين الفرق و المذاهب هي السائدة في المنطقة منذ الفتوحات ، فكانت النقاشات بين العلماء مفتوحة عموما بعيدا عن التعصب و التعسف السلطوي إلا في حالات معزولة ، غير أن الفاطميين عندما سيطروا على السلطة نهجوا سياسة مناقضة لما كان سائدا ، سياسة تعتمد على التعصب و الاكراه و العنف ، و الهدف منها فرض المذهب الشيعي على ساكنة المنطقة و إقصاء باقي المذاهب . وقد وضع أسس هذه السياسة أبو عبيد الله المهدي⁵ مؤسس الدولة ، فمباشرة بعد دخوله القيروان سنة 297 هـ ، "أمر يوم الجمعة أن يذكر اسمه في الخطبة و يلقب بالمهدي أمير المؤمنين في جميع البلاد ، فلما كان بعد صلاة الجمعة جلب رجل يعرف بالشريف و معه الدعاة و أحضروا الناس و دعوهم الى مذهبهم و قتل من لم يوافق"⁶ . و قد أثارت هذه السياسة حنق أهل القيروان الذين عارضوها بجميع الوسائل فقد ذكر المقرئزي أنه " ثارت فتنة بين كتامة⁷ و أهل القيروان قتل فيها خلق كثير دفعت المهدي كف الدعاة على طلب الناس بمذهب التشيع"⁸ . بيد أن ذلك كان قرارا مؤقتا لامتناع غضب السكان و لتهدئة الوضع ، فقد عادت الدولة إلى سياسة الإكراه و كان نصيب علماء المالكية أوفر من التنكيل و القتل و التعذيب، و كتب التراجم حافلة بذلك من الأمثلة على ذلك "ابن البرذون و ابن هذيل اللذين ذبحا أمام الملا و عروب المؤذن

مرادي إذا لنتها بعلمي قال : فافتقا فرجع أبو يزيد نكاريا وثبت أبو الربيع على مذهب الحق"¹ .

ومن هنا يتأكد أن أبو يزيد نشأ إباضيا ثم تغيرت قناعاته ليصبح نكاريا ، على عكس ما ذهب إليه ابن خلدون بأن نشأته كانت على المذهب النكارى الذي كان يلحق مبادئه للنشأة²، كما أنه جعل في موضع آخر النكارية من الصفرية³، وهذا غير صحيح فالنكارية غير الصفرية و أصلها إباضية انشقت عنها . وهناك مصادر أخرى ذات هوى فاطمي أكدت على أنه من فرقة الخوارج الأزارقة⁴ ، وهذا أيضا غير صحيح بالنظر إلى أن هذه الفرقة لم يكن لها موطن قدم في بلاد المغرب أصلا ، و بالنظر إلى اتفاق المصادر الإباضية و غيرها حول انتمائه النكارى.

وفي الأخير يجب التنبيه إلى أن الفرقة النكارية لم تترك تراثا مكتوبا يوضح لنا أصول المذهب و فروعه ، وإذا أخذنا بالاعتبار سبب انشقاقها عن الإباضية ،

و الذي كان في جوهره سياسيا ، فيمكن القول بأن الاحكام الفقهية التفصيلية ظلت هي نفسها.

ثانيا : أسباب الثورة

يمكن حصر الأسباب التي كانت وراء الثورة في ثلاث و هي :

1- السبب المذهبي :

1- الشماخي ، المصدر السابق ، ص 195 ، و يقصد بالمذهب الحق المذهب الإباضي .

2- ابن خلدون ، العبر ، م 7 ، ص 16

3- ابن خلدون ، العبر ، م 4 ، ص 49

4- الجوزري ، سيرة الاستاذ جودر ، تحقيق محمد كامل حسين ، دار الفكر

العربي ، القاهرة ، 1955 ، ص 48

5- المقرئزي ، المقفى الكبير ، ص 53

6- المقرئزي ، اتعاظ الحنفاء ، م 1 ، تحقيق جمال الدين الشيال ، المجلس الأعلى

للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، ط 2 ، 1996 ، ص 66

7- قبيلة كتامة هي العصبية التي أقامت الدولة الفاطمية و استوطنت شرق

المغرب الأوسط ، الجزائر حاليا .

8- المقرئزي ، كتاب المقفى الكبير ، تحقيق محمد اليعلاوي ، دار الغرب

الاسلامي ، بيروت ، ط 1 ، 1987 ، ص 90

الهدف من هذه السياسة هو حمل الخوارج "على دين الرافضة و فسخ بها دين الخارجية حتى استحکم في عقائدهم"⁷.

من خلال كل ما سبق يتأكد أن سياسة التعصب المذهبي كانت مسألة بنيوية في نظام الدولة الفاطمية لازمتها منذ التأسيس ، و عانت منها ساكنة المنطقة بشكل كبير، و التي كانت تنتظر أي حدث لتعلن عن تدمرها و رغبتها في التخلص من هذه السلطة ، التي لا تؤمن بالتعددية الفكرية و المذهبية ، وهذا ما منح لأبي يزيد الشرط الموضوعي لانطلاق ثورته.

2- السبب الاقتصادي :

بالنظر إلى المصادر المتوفرة لدينا يمكن القول بأن العامل الاقتصادي لم يكن له دور حاسم في ثورة أبي يزيد ، و إنما دور هامشي.

فإذا أخذنا الروايات التي تحدثت عن الأفكار التعبوية المعتمدة من طرف أبا يزيد لإقناع الناس بضرورة الثورة فلن نجد أي فكرة تحيل على الوضع الإقتصادي ، و إنما أفكار كلها تحيل إلى الوضع المذهبي . و إذا أخذنا أيضا الآراء التي كان يتناقش حولها علماء المالكية، عندما طرح مقترح الانضمام إلى ثورة أبي يزيد للتداول ، نجد أنها ركزت على الجانب المذهبي و لم يطرح أحد أي رأي يحيل إلى الجانب الاقتصادي.

الذي رفض أن يقول في الآذان حي على العمل..."¹ . لذلك عندما أعلن أبو يزيد الثورة لم يتردد المالكية في الانضمام إليها كرد على التعسف المذهبي الذي انتهجته الدولة الفاطمية .

والخوارج بدورهم تعرضوا لاضطهاد شديد من طرف الدولة الفاطمية التي جعلت من الإطاحة بالإمارات الخوارجية هدفا لها، فمباشرة بعد الإطاحة بالدولة الاغلبية تحركت للقضاء على الإمارات الخوارجية ، فقد أسقطت إمارة بني رستم الإباضية التي كان مقرها في تاهرت بالمغرب الاوسط سنة 296 هـ ، وإمارة بني مدرار الصفارية التي كان مقرها بسلمجاسة في المغرب الأقصى سنة 297 هـ ، مرتكبة الفظائع، فقد " قتلوا الكثير و أرسلوا رؤوسهم إلى القيروان "²، ووصف ابن زكريا الوضع في تاهرت بعد دخول الفاطميين إليها فيقول : " ثم إن الحجاني³ دخل المدينة وانتهبها و انتهك حرمتها وأجلى كثيرا ممن فيها و جعل أعزة أهلها أذلة و كذلك يفعلون "⁴ ، و ما يؤكد النزعة التعصبية و الإقصائية في سياسة الدولة الفاطمية و رغبتها في القضاء على التنوع المذهبي و الفكري في المنطقة قرار القائد أبو عبد الله بإحراق المكتبات في تاهرت و سجماسة لمحو فكر الخوارج من المنطقة، فقد قام بما يشبه عملية تفتيش للكتب " فافتنى منها كل ما يصلح للملك و الحساب و أضرم النار في بقيتها"⁵، و على رأسها طبعا " أغلب مؤلفات المذهب "⁶، و

³- يقصد أبو عبد الله الشيعي المؤسس الفعلي للدولة الفاطمية ، و الذي انتهى مقتولا سنة 298 هـ على يد أبو عبيد الله المهدي ، و قد انتقلت المصادر على أن سبب ذلك هو شكوك المهدي في ولائه. انظر القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، تحقيق فرحات الدشرابي ، الشركة التونسية للتوزيع ، ط 2 ، 1986 ، ص 306
⁴- أبو زكريا ، كتاب سير الأئمة ، ص 170
⁵- نفسه
⁶- الباروني ، الأزهار الرياضية في أئمة و ملوك الإباضية ، دار الحكمة ، لندن ، ط 1 ، 2005 ، ص 346
⁷- ابن خلدون ، العبر ، م 6 ، ص 144

1 - المالكي ، رياض النفوس، ج 2 ، تحقيق البشير البكوش ، دار الغرب الإسلامي ، ط 2 ، 1994 ، ص 49 . في عز هذا الاضطهاد ألف الفقيه أبو العرب تميم كتابه المحن ، تحقيق يحيى الجبوري ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط 3 ، ص 62 ، ترجم فيه لعشرات العلماء الذين تعرضوا للمحن في العهود السابقة من أجل كلمة الحق و كأنه يخاطب علماء زمانه حاثا إياهم على الصبر و الثبات على الحق و الاقتداء بسيرة السلف الصالح.
2- البكري ، المسالك و الممالك ، ج 2 ، تحقيق جمال طلبة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص 248

إذن يمكن التأكيد أن العامل الاقتصادي كان حاضرا في ثورة أبي يزيد و لكن ليس باعتباره عاملا أساسيا و إنما باعتباره عاملا مساعدا أو ثانويا حفز البعض على الالتحاق بصوف الثوار ، تعبيرا منهم عن رفضهم للواقع الاقتصادي الذي فرضته الدولة الفاطمية .

3 - السبب القبلي :

أرجع بعض الباحثين سبب الثورة إلى التنافس القبلي بين قبائل البتر البدوية وقبائل البرانس الحضرية و بالأخص بين قبائل كتامة البرنسية و قبائل زناتة البترية ، و يعتبر جوتييه أن هذا التنافس يشكل مفتاح رئيسي لفهم هذه الثورة و تاريخ المغرب ككل⁵ ، و يعتمد هنري تيراس نفس التفسير و يجعل من التنافس بين صنهاجة و زناتة مدخلا لفهم الثورات في عهد الفاطميين ، و زاد من حدته في "بداية تاريخ الفاطميين انتشار الغضب الديني حيث كانت أغلب زناتة خارجية"⁶ ، لم تقبل هيمنة الشيعة الفاطمية على السلطة في منطقة كانت محسوبة على المذهب السني و الخارجي .

وهو نفس التفسير الذي اعتمده أحمد المختار العبادي فاعتبر أن الثورة إذا كانت "في ظاهرها صراع بين خوارج و شيعة فإنها في باطنها بين أهل البداوة و الرحل أو البربر البتر و بين أهل الزراعة و الاستقرار أو البربر البرانس"⁷ ، بمعنى آخر هذه الثورة انعكاس لصراع بين نمط عيش اقتصادي قائم على الترحال

و هذا الاقرار لا يعني غياب أي دور لهذا العامل فهناك روايات ، و إن كانت قليلة ، تتحدث عن بعض الاجراءات الاقتصادية التي اتخذتها الدولة الفاطمية وكانت ذات تأثير سلبي على بعض الشرائح الاجتماعية . ففي إطار سياستها العقابية كانت تتخذ إجراء مصادرة أموال كل من حرض أو شارك في الخروج على الدولة ، فمثلا عندما ثار أهل طرابلس في سنة 302 هـ ضدها تحرك نحوهم القائم بأمر الله¹ " فلما افتتحها . . قتل الذين عقدوا الخلاف بها من أكابرها و استصفى أموالهم"² ، و لابد أن يكون لهذا الاجراء تأثير سلبي على الساكنة وخاصة الأعيان منهم . وفي إطار سياستها المالية كانت تعمل على فرض ضرائب متنوعة منها ضريبة على الحجاج ، فقد اتخذ أبو عبد الله قرارا بفرض "طريق الحاج على المهدي لأداء ما وظيف عليهم من المغارم و ألا يتعدى هذا الطريق أحد و جعل على الحجاج مغارم عظيمة يعجز أكثر الناس عنها"³ . كما أن استغلال النفوذ من طرف بعض المسؤولين كان شائعا لجمع أكبر كمية من الأموال، باعتباره معيارا للنجاح من أجل الحصول على رضا ملوك الدولة ، فمثلا لما "ولي محمد بن عمران النفطى قضاء القيروان ، وكان قبل ذلك على قضاء أطرابلس ، جمع بها أموالا كثيرة من الرشا و الأحباس و رفعها إلى عبيد الله فكانت و سيلة له عنده فولاه القيروان"⁴ .

⁵ - gautier, les siecles obscure de l'histoire de maroc ,payot , paris , 1927, p 354

⁶ - henri terrasse, histoire du maroc, edition atlantide , casablanca , p 143

⁷ - أحمد المختار العبادي ، سياسة الفاطميين نحو المغرب و الاندلس ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمديرد ، م 5 ، ع 21 ، سنة 1957 ص 203

¹ - محمد بن عبيد الله المهدي ثاني خلفاء الدولة الفاطمية ، تولى الحكم بعد وفاة والده سنة 322 هـ و استمر في الحكم إلى وفاته سنة 334 هـ انظر المقرئبي ،

المقضى الكبير ، ص 113

² - القاضي النعمان، افتتاح الدعوة ، ص 325

³ - ابن عذاري، البيان ، تحقيق بشار عواد معروف ، دار الغرب الاسلامي ،

تونس، ط 2013 ، ص 201

⁴ - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ص 202

الدولة الموحدية التي استقلت بشكل نهائي بسلطتها عن الخلافة بالمشرق ، أما قبل ذلك فمن الشطط المعرفي إقرار ذلك. وكخلاصة يمكن التأكيد على أن ثورة أبي يزيد كانت في جوهرها مذهبية جاءت للرد على فعل التعصب المذهبي الذي انتهجته الدولة الفاطمية و ما رافق ذلك من ظلم و تعسف في حق أتباع المذاهب الأخرى ، خاصة العلماء و الأعيان منهم . ويظهر ذلك في خطاب التعبئة لأبي يزيد الذي ركز فيه على ضرورة محاربة الدولة الفاطمية الظالمة ، وفي النقاشات بين علماء المالكية حول وجوب الانضمام لثورة أبي يزيد والتي ركزت على العامل المذهبي ولم تتحدث عن عوامل أخرى . وهذا لا يعني غياب أي دور لها ، فيمكن من خلال روايات قليلة استنتاج أنه كان هناك تأثير ثانوي للتنافس القبلي و الوضع الاقتصادي في قيام الثورة .

ثالثا : مراحل الثورة

يمكن الحديث عن ثلاث مراحل كبرى مرت بها الثورة ، لكل مرحلة أحداث تميزها عن الأخرى:

1 - المرحلة الأولى : مرحلة الإعداد و التعبئة

لم تكن ثورة أبي يزيد فجائية رهينة حدث معين ، وإنما سبقها إعداد و تعبئة طويلة النفس ، تقوم على فكرة إسقاط شرعية حكم الدولة الفاطمية بالتدرج لدى رعية المنطقة . فقد اعتمد في البداية على سياسة انتقاد مظاهر الفساد في الدولة الناشئة انطلاقا من المبدأ الشرعي الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر،

و آخر قائم على الاستقرار . ويظل هذا التفسير صحيحا إذا تم التعامل معه بشكل نسبي أما اعتماده بشكل مطلق باعتباره السبب الوحيد للثورة فلا تسعفه الأحداث ، فموسى بن أبي العافية كان زناتيا¹ لكنه كان لوقت طويل متحالف مع الفاطميين في فترة صراعهم مع الزناتيين في تاهرت و سجلماسة و غيرها ، أضف إلى ذلك أن هواره برنسية و مع ذلك كانت من أكبر الداعمين لأبي يزيد ، فالانتماء إلى المذهب يكون عند البعض أهم من الانتماء القبلي .

وإذا أخذنا بمفهوم العصية الذي وضعه ابن خلدون نجد أن هذا الرأي صحيح نسبيا فلا بد لكل حركة سياسية سواء كانت في السلطة أو معارضة من عصية تأخذ بيدها وتسندها بالموارد البشرية و المادية لتحقيق أهدافها، و ثورة أبو يزيد لا تشذ عن هذه القاعدة، فقد اتخذت من زناتة عصية لها، ولكن وجه الشطط أن يعتبر السبب الوحيد المفسر لقيام الثورة. أما جورج مارسى فاعتبر الثورة تعبير عن رغبة جماعية في "الانفصال بين العالم البربري و السادة المشرقين"² ، ويبدو أنه تعجل في تقرير هذا التفسير الذي يناقض الأحداث والواقع آنذاك ، فأبو يزيد قدم الطاعة إلى الدولة الأموية بالأندلس، و هو تقليد كان سائدا بشكل عام عند القبائل الزناتية³ و إماراتهم ، و الدولة الفاطمية نفسها كانت برئاسة مشرقية رغم أن قاعدتها كانت بربرية خالصة . و عموما قضية التبعية و الاستقلال عن الخلافة سواء في المشرق أو الاندلس ظلت غير محسومة إلى أن جاءت

³- ابن حيان القرطبي، المقتبس في أخبار بلد الأندلس ، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي ، دار الثقافة ، بيروت ، 1965 ، ص 27

¹- سعد زغلول ، المرجع السابق ، ص 103 ، و انظر ترجمته عند ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، م 3 ، ص 213
²- جورج مارسى ، بلاد المغرب و علاقتها بالمشرق ، ترجمة محمود عبد الصمد هيكيل ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، 1971 ، ص 171

بديل آخر يغري الناس و خاصة العلماء و الأعيان ، يقوم على احترام التعددية المذهبية وعلى العدل و الشورى، لذلك توجه بخطابه إلى أتباع الخوارج بفروعهم المتعددة و إلى أتباع أهل السنة و الجماعة خاصة المالكية منهم ، فكان يخاطب أهل القيروان قائلاً " لم لا تجاهدوا بني عبيدها "7، فكان يركز على ما يؤلف القلوب و يبتعد عن ما يفرقها . ولقد لقي خطابه هذا قبولا عاما و الدليل على ذلك ما ذكره صاحب البيان الذي أكد أن أبا يزيد" أخذ يدعو إلى الحق بزعمه ولم يعلم الناس مذهبه فرجوا فيه الخير والقيام بالسنة "8. لقد اجتهد أبو يزيد في جعل خطابه واقعيا يقوم على مبادئ إسلامية عامة ، موجها لجميع من تضرر من سياسة الدولة الفاطمية ، بعيدا عن النزعات المذهبية التي تثير الخلافات و الأحقاد ، و ذلك حتى يتمكن من خلق قاعدة صلبة يمكنها مواجهة السلطة القائمة و الاطاحة بها .

و لقد استغرقت عملية الإعداد و التعبئة مدة ليست باليسيرة حيث بدأت " أيام المهدي سنة ست عشرة و ثلاثمائة "9، و استمرت إلى إعلانه الثورة بشكل رسمي و عملي " سنة اثنان و ثلاثون و ثلاثمائة"10 . بمعنى تطلبت عملية الإعداد ستة عشرة سنة كاملة ، مكنته من خلق قاعدة صلبة من الأتباع ذوي المذاهب المختلفة من "إباضية ووهبية و خلفية و نفاثية و

حيث بدأ " يحتسب على الناس في أفعالهم و مذاهبهم "1، لينتقل خطوة مهمة في حركته بتوجيه النقد لسياسة الدولة في شخص " جباة الأموال "2 باعتبارهم يأخذون أموال الناس بغير وجه حق . وهذه الجراة في انتقاد الأوضاع أكسبته صيتا إيجابيا في مجتمعه، باعتباره عالما لا يخاف في الله لومة لائم ، وفي هذه المحطة التقى بأبي عمار الأعمى³ الذي أصبح مستشاره وسنده الرئيسي في التعبئة فقد "عاضده على أمره و ادعيا الصلاح و كان يسيران في البربر و يسعيان في الفساد و التآليب على الدولة العلوية"4. و هذا ما جعل الناس تلتف حوله و تأتمر بأمره ، حيث أخذوا " يجتمعون عليه في المكان المعروف به و اطلع منهم من اطلع على ما عزم القيام به حتى اشتهر به "5، و قد بلغ عددهم حسب ابن حماد "ثلاثمائة"6. وبعد أن ظهر كرجل داعية الى الحق و بعد تأكده من حجم القبول الذي أصبح خطابه يحظى به لدى الساكنة انتقل إلى الخطوة الأهم و هي التحريض على الدولة ، باعتبارها غير شرعية ، و الدعوة إلى إسقاطها . ويظهر أن الرجل كان يملك وعيا سياسيا بشروط نجاح دعوته وعلى رأسها التعالي عن النزعة المذهبية فقد قام بمخاطبة جميع الساكنة بضرورة ذلك، بغض النظر عن انتمائهم المذهبي و القبلي، لتحقيق العدل وتجاوز حالة التعصب المذهبي التي تخلق المآسي و تنشر المظالم . فقد كان مدركا أن مشكلة الدولة الفاطمية هو تعصبها المذهبي و لمواجهتها لا بد من طرح

5- ابن حماد ، أخبار ملوك بني عبيد ، ص 54

6- ابن حماد ، المصدر السابق ، ص 54

7- ابن حماد ، المصدر السابق ، ص 54

8- ابن عذاري ، المصدر السابق ، ص 228

9- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص 185

10- ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج 2 ، تحقيق حسين مؤنس ، دار المعارف ،

القاهرة ، ط 2 ، 1985 ، ص 289 ، بعض المصادر تجعلها في سنة 333 هـ

كالمقريري و الداعي ادريس و الحميري .

1- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص 185

2- ابن عذاري ، المصدر السابق ، ص 205

3- ليست لنا معلومات كافية عن هذه الشخصية التي بدأت فجأة بالظهور بعد هذا

الحدث و ابن خلدون هو الوحيد الذي ذكر بأن أبا عمار "هذا كان

رأس النكارية و اسمه عبد الحميد وكان ممن اخذ عنه أبو يزيد" كتاب العبر ،

ج 7 ، ص 16

4- الداعي إدريس عماد الدين ، تاريخ الفاطميين ، تحقيق محمد البيلاوي ، دار

الغرب الاسلامي ، بيروت ، ط 1 ، 1985 ، ص 265

بالمهدية و القيروان صار الأمر شوري وذلك سنة إحدى و ثلاثين و ثلاثمائة⁸.

ويدل هذا الشرط على التزام النكارية بأهم مبادئ الفرقة التي كانت سببا رئيسيا في انشقاقها عن الاباضية ، كما يؤكد هذا الشرط الموضوع أنه كان هناك وعيا عاما أن الثورة تمم الجميع و ليست خاصة بأتباع مذهب محدد أو قبيلة معينة ، إذ أن شرط الشورى ترك عاما دون تقييد ، فلو كانت مذهبية أو قبلية لقيدت بحق الانتماء . و كان الهدف من إقرار هذا الشرط اقناع أتباع المذاهب الأخرى الذين ترددوا في الالتحاق بركب الثوار ، بأنهم أمام ثورة ذات أهداف عامة تمم جميع الساكنة و ترغب في تجسيد أهم المبادئ السياسية التي دعا إليها الإسلام على أرض الواقع وهو مبدأ الشورى في اختيار الحاكم بعدما تم هجرانه منذ فترة الخلافة الراشدة ، بالإضافة إلى كونه تجسيد لأهم مبدأ في الفقه السياسي للخوارج وهو الشورى في اختيار الخليفة المتوفرة فيه الشروط المعتمدة بغض النظر عن نسبه و حسبته⁹ . كما يؤكد أن مبدأ الشورى جوهرية في بناء الخطاب السياسي للفرقة النكارية ، التي أكدت على ضرورة تجسيدها في مؤسسة قائمة بذاتها، يرجع إليها الخليفة في اتخاذ القرارات الكبرى، وتكون عوناً له ومراقبة لسياساته حتى لا ينحرف نحو الاستبداد ، و كان هذا هو سبب انشقاقها عن الاباضية التي رفضت هذه الفكرة¹⁰ ، و يمكن اعتبار ذلك وعياً

نكاراً¹ و مالكية ، شجعتة على إطلاق ثورته في وجه الدولة الفاطمية التي وجدت نفسها أمام وضع سياسي جديد يهدد وجودها ككل

2 - المرحلة الثانية : إعلان الثورة و تألقها

لقد كان لحدث اعتقال أبي يزيد في توزر، بعد عودته من المشرق سنة 325 هـ²، من طرف السلطة تأثير كبير على مسار الأحداث ، إذ عجلت بإعلان الثورة . فأمام استمرار اعتقاله و اليأس من إمكانية إطلاق سراحه ، قرر رفيقه أبو عمار الأعمى القيام بخطوة حاسمة في إعلان الثورة ألا وهي تدبير عملية فرار أبي يزيد من السجن³ . فقد قام ، بمعية ابني أبي يزيد وبعض أتباعه، بمهاجمة السجن " وتكسير بابه و قتلوا السجنان و أخرجوا جميع من في السجن فأخرجوا صاحبهم في كبوله"⁴ ، وبهذه الخطوة انتقلت الحركة من منطق التعبئة و الإعداد إلى منطق الخروج و الثورة ، و من " نطاق الدعوة السرية إلى الدعوة العلنية"⁵ .

بعد نجاح عملية الفرار من السجن انطلق أبو يزيد و رفاقه نحو جبال أوراس عند أنصاره "النكارية بالنوالات"⁶ ، التي جعلها منطقة الحشد " فاجتمع إليه القراة و سائر الخوارج و أخذ له البيعة عليهم أبو عمار الأعمى صاحبه على قتال الشيعة"⁷ ، وكانت هذه البيعة تحت شرط أنهم " إذا ظفروا

1- محمود اسماعيل ، الخوارج في بلاد المغرب ، رؤية للنشر و التوزيع ،

القاهرة ، ط 1 ، 2010 ، ص 379

2 ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج 7 ، ص 16

3- الدرجيني ، طبقة المشايخ ، ص 97

4- الدرجيني ، طبقة المشايخ ، ص 98

5- سعد زغلول ، تاريخ المغرب العربي ، ج 3 ، ص 173

6- ابن خلدون ، العبر ، ص 16

7- ابن خلدون ، العبر ، ص 16

8 - نفسه . هذا الشرط الذي وضع يوضح التزام ابو يزيد بأهم المبادئ السياسية

للفرقة النكارية و التي كانت سببا في انشقاقها عن الاباضية انظر الدرجيني ،

طبقات المشايخ ، ص 48 و أيضا الشماعي ، السير ، ج 1 ، ص 130

9- ابن حزم ، الفصل بين الملل و النحل ، ج 4 ، تحقيق محمد ابراهيم نصر ،

دار الجيل ، بيروت ، ط 2 ، 1996 ، ص 152

10- الشماعي ، السير ، ج 1 ، ص 130

باجة واستباحها"⁶ أما أهل تونس فقد قرروا الخروج من طاعة الفاطميين " فتم نهب دار عاملها فهرب، وكتبوا أبا يزيد فأعطاهم الأمان وولى عليهم رجلا منهم"⁷ .

لقد تراكمت انتصارات الثورة إلى أن حققت أهم إنجاز لها ألا وهو السيطرة على القيروان في " صفر سنة 332 هـ"⁸ . وهناك اختلاف بين المصادر في تحديد طريقة دخول أبي يزيد إليها فبعضها يؤكد على الصبغة العنيفة حيث "قتل من أهل القيروان خلقا كثيرا"⁹ ، و ارتكب فيها من الجرائم ما ارتكبه في المدن الأخرى ، أما المصادر الأخرى فتحدثت عن دخوله إليها بطريقة سلسة ، لم تواكبها أي معارك مع ساكنة المدينة بل "أظهر لأهلها خيرا و ترحم على أبي بكر و عمر"¹⁰ ، و تظل هذه الرواية هي الأرجح وما يعزز ذلك موقف المالكية الإيجابي من الثورة ، وخاصة أن أعيان المالكية عندما كانوا يتناقشون حول الانضمام إلى ثورة أبي يزيد لم يشر أي منهم إلى التجاوزات التي قام بها الثوار تجاه ساكنة القيروان ، أما المقاومة المسلحة التي اعترضته فكانت مقاومة الحامية الفاطمية التي سرعان ما تم القضاء عليها باستسلام حاكمها الفاطمي الذي تعرض للقتل¹¹ .

فأهل القيروان كانوا في وضعية المقارنة بين سياسة أبي يزيد تجاههم والسياسة التي عايشوها مع الفاطميين، فلو كان قد اقترف جرائم في حقهم، كما نجد في بعض المصادر، لكان ذلك

سياسيا متقدما بأهمية الانتقال بالشورى من فعل أخلاقي عفوي غير ملزم خاضع لرغبة الحاكم إلى فعل سياسي منظم في إطار مؤسسة قائمة الذات تلزم الحاكم استشاراتها في القضايا الكبرى ، و لكنه للأسف لم يخضع للتطور التاريخي و تم إجهاض هذه المحاولة التي كانت ستكون حلا عمليا لمعضلة السلطة في التاريخ العربي الاسلامي .

بعد حصوله على البيعة كقائد للثورة بدأ في عملياته العسكرية ، و نجح بداية في فك "الحصار الذي ضربه عليه جيش القائم"¹ ، حيث تمكن من هزيمة هذا الجيش و تشتيت شمله . و قد منح هذا الانتصار ثورة أبا يزيد زخما و صيتا شجع القبائل الأخرى على الالتحاق بصفوفه بعد أن تأكدت أنها أمام حركة قوية و جادة يمكن أن تحدث تغييرا على مستوى السلطة . وعلى إثر هذا الانتصار و توسع قاعدة أنصاره تحرك أبو يزيد بجيشه للاستيلاء على المدن " ففتح الساحل كله و أقبل على قسطنطينية التي خرج منها ففتحها بأسرها"² ، كما دخل "باغايا ثم تبسة و مجانة ثم مرجنة ثم بسية"³ ثم تحرك نحو الأريس حيث دخلها دون مقاومة بعد أن انفض عنها "عساكر كتامة"⁴ ، ولقد كان هناك وعي كبير لدى القادة من الجانبين بأهمية التحكم في الأريس ، باعتبارها بداية السيطرة العملية على القيروان ، ومقدمة للقضاء على الدولة الفاطمية كما حدث لهذه الأخيرة في بداية تأسيسها مع "بني الأغلب"⁵ . بعد ذلك "دخل

7- ابن الأثير ، ص 186

8- المقرئزي ، المصدر نفسه ، ص 77

9 - المقرئزي ، المقفى ، ص 77 . ابن الاثير ، الكامل ، ص 186

10 - ابن عذاري ، البيان ، ج 1 ، ص 228 ، ابن مقديش ، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ و الأخبار ، تحقيق علي الزواري ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، ط 1 ، 1988 ، ص 379

11- ابن الاثير ، المصدر السابق ، ص 187

1- الدرجيني ، المصدر السابق ، ص 98

2- ابن زكريا ، سير الأنمة، ص 178 و قسطنطينية أو قسطنطينية منطقة في الجنوب الغربي لتونس تعرف أيضا بالجريد

3- ابن الاثير ، الكامل، ج 7 ، ص 185

4- ابن خلدون ، العبر ، ج 7 ص 16

5- ابن الأثير ، الكامل ، ج 7 ، ص 185 ، المقرئزي ، اتعاظ الحنفا ، ج 1 ، ص

76

6- ابن خلدون ، ص 17

عند الملكية ألا وهو الدولة الأموية في الأندلس ، فمباشرة بعد دخوله القيروان وحصوله على تأييد مالكيها قام بإرسال ابنه الى الخليفة الناصر* بقرطبة² ، ليبلغ هذا الأخير دخول أبا يزيد في طاعته راغبا في مساعدته ، والذي لم يتردد في قبول هذه البيعة و تقديم المساعدة الممكنة للثوار ، فحصل بذلك على دعم سياسي مهم .

لقد أدرك أبو يزيد أهمية العامل الخارجي في نجاح أو إخفاق الثورة ، لذلك سعى لتحويل هذا العامل لصالحه في ضوء العداء المعلن بين الأمويين و الفاطميين ، خاصة أن مالكية المنطقة كان ميولها أكثر لدولة بني أمية ، فحقق بذلك هدف آخر وهو تقوية جبهته الداخلية حيث أصبح في نظر أهل السنة و الجماعة قائدا يمكن التعويل عليه لمواجهة الاستبداد الفاطمي . مباشرة بعد اتفاق المالكية على الانضمام إلى جبهته تحرك أبو يزيد نحو المهديّة عاصمة الفاطميين، التي شيدها أبو عبيد الله المهدي³ ، لتوجيه الضربة القاضية لحكمهم ، ففرض حصارا عليها "وحاصر بها القائم زمنا طويلا"⁴ ، و الذي اجتهد كثيرا لمنع سقوطها في يد الثوار إلى أن وافاه الأجل "محاصرا بها سنة 334 هـ"⁵، ليتولى بعده الحكم ابنه المنصور الذي أخذت معه الأحداث مسارا آخر .

مناطق نقاش بينهم لترجيح فكرة المشاركة من عدمها . فنحن نعلم أن دخول الفاطميين للقيروان لم يرافقه اي اعتداء على الساكنة و ولم تستحل دماءهم وتسييرهم للمدينة لم يكن فيه شطط ، باستثناء تعصبهم المذهبي، و في المقابل وحسب تلك المصادر فدخول أبا يزيد المدينة رافقه العنف و استحلال لدماء الأبرياء ، و لذلك تكون المقارنة في صالح الفاطميين ، و بالتالي يكون من غير المعقول الانضمام إلى ثورة أبي يزيد ، وعليه فإن رواية المصادر و على رأسها تراجم المالكية و ابن عذاري تظل هي الراجحة .

في إطار النقاش الذي فتحه علماء القيروان حول الموقف من ثورة أبي يزيد ترجح لديهم ضرورة الانضمام الى ثورته و القتال إلى جانبه في مواجهة الفاطميين و اعتبروا " الخروج مع أبي يزيد الخارجي و قطع دولة بني عبيد فرضا"¹، فتحقق بذلك على أرض الواقع قاعدة واسعة تضم فئات ومذاهب متعددة ، شكلت غالبية السكان ، تعالت على المذهبية المفرقة وتوحدت حول هدف سياسي واحد لا اختلاف حوله و هو الإطاحة بالدولة الفاطمية .

لتكريس هذا التوحد قام أبو يزيد بخطوة مهمة تمثل في استغلال العامل الخارجي لصالح الثورة ، فقام بالتحرك نحو أقرب حليف موضوعي يمكن أن يساعده في مواجهة الفاطميين ويزكي شرعيته

إلى أسوار المهديّة و لكن دون أن يتمكن من الدخول إليها ، بل حدد المنطقة التي سيصل إليها الثوار بدقة بعدها سيكون انهزامهم ، و لا يخفى البعد الاسطوري للقصة و التي تعكس أحد أهم خصائص الفكر الشيعي في تقديس الأئمة و جعلهم خارج الدائرة البشرية و ارتباطهم بالذات العلية بشكل مباشر تكشف لهم حجب الغيب ، انظر المقرئزي ، كتاب المقفى الكبير ، ص 91 . القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص 327
⁴ - الدرر جيني ، المصدر السابق ، ص 101
⁵ - ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج 1 ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1978 ، ص 235 ، المقرئزي . اتعاظ الحنفا ، ص 82

1- القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، ج 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 1998 ، ص 29 ، الدباغ ، معالم الايمان ، ج 3 ، تحقيق محمد ماضور ، المكتبة العتيقة بتونس ، 1978 ، ص 29
 * - الخليفة الناصر هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ثامن خلفاء بني أمية تولى الخلافة سنة 300 هـ إلى وفاته سنة 350 هـ و كان أول من تلقب بأمرير المؤمنين في الأندلس ، اعاد الاستقرار للدولة و اهتم كثيرا بالفتوحات ، و تعد فترة حكمه من أزهى فترات حكم الدولة الاموية بالأندلس ، انظر المقرئزي ، نفع الطيب ، م 1 ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1968 ، ص 353
 2- ابن خلدون ، العبر ، م 7 ، ص 17
 3- أحاطت المصادر تأسيس المهديّة بهالة قدسية عندما زعمت أن المهدي قرر بناء المدينة لتكون حصنا منيعا ضد الثوار ، فقد تنبأ بخروج أبا يزيد و وصوله

رابعا : مرحلة التراجع و إجهاض الثورة

لقد شكل فعل حصار المهديّة أوج ثورة أبي يزيد ، وكان المتوقع و الطموح أن تسير الأمور في اتجاه ايجابي ، بالدخول إلى المدينة و القضاء على حكم الفاطميين ، مادام أن عوامل النجاح كانت مجسدة على أرض الواقع ، داخليا توحد الجبهة الداخلية وراءه و خارجيا الدعم السياسي من أقوى دولة آنذاك وهي الدولة الأموية بالأندلس ، فالقضاء على الدولة لم يكن يحتاج سوى حسن تدبير تلك العوامل . إلا أن العكس هو الذي حدث فأمام زخم الانتصارات و عند اقتراب لحظة القضاء على حكم الفاطميين ، اتخذ أبو يزيد قرارا كانت تداعياته كارثية على مسار الثورة ، فعندما رأى "أنه قد استولى على الأمر أو كاد وأن الشيعي قد كاد يبيد أو باد ، قال لجنوده : إذا التقيتم مع القوم فانكشفوا عن أهل القبروان ، حتى يتمكن أعداؤكم من قتلهم فيكونوا هم الذين قتلوهم لا نحن فنستريح منهم"¹ ، إذن قام - و في لحظة كان الاعتقاد أن سقوط المهديّة مسألة و قت ليس إلا- بترك جبهة أهل القبروان مكشوفة في إحدى معارك حصار المهديّة دون دعم حتى تنهزم أمام الفاطميين ، و إذا تساءلنا ما هدفه من تلك الخطوة تكون الإجابة أنه " أراد أن يتبرأ من معرفة قتلهم عند عامة الناس ، و أراد الراحة منهم ، لأنه فيما ظن إذا قتل شيوخ القبروان و أئمة الدين تمكن من أتباعهم فيدعوهم إلى ما شاء فيتبعونه ، فقتل صلحاء القبروان و فقهاءها"² . فقد اعتقد أبو يزيد أن بقاء المالكية في صفه تهديدا لطموحه في الهيمنة على السلطة ، خاصة و أن الاتفاق

كان قائما على العودة إلى مبدأ الشورى في حسم طبيعة السلطة التي يجب أن تشيد بعد القضاء على الدولة الفاطمية ، فقد أراد أن يستبد بالأمر. و تمت دليل قوي يثبت ذلك فقد أوردت بعض المصادر خبرا عن تبرمه و انزعاجه من انتقاد بعض سياساته و عدم استساغته لوجود أي معارض له حتى من داخل طائفته ، فحدث أن "رجل من علماء النكارة يسمى زكرياء كان ينكر عليه.. ولما رأى أبو يزيد ذلك منه ، خشي أن يفسد عليه قلوب العامة فأمر بقتله ليلا فلم يعلم خبره"³ .

ففي هذه المرحلة من الثورة أحدث أبا يزيد تغييرا في سياسته مع أتباعه من المذهب ، حيث أصبح يرفض أي اعتراض على سياساته ثم مع حلفائه المالكية الذين غدر بهم في لحظة حاسمة من مسار الثورة ، كما كشف هذا القرار بأن تخليه عن التعصب المذهبي لم يكن مبدئيا أو استراتيجيا و إنما كان حيلة أو تكتيكا مرحليا اقتضته اللحظة سيتم تجاوزه عندما تتغير الظروف . بمعنى أنه أراد من خطته ضرب عصفورين بحجر واحد ، أولا القضاء على حكم الفاطميين ، ثانيا القضاء على أعيان المالكية الذين كانت شعبيتهم عند العامة كبيرة و على معارضيه من الخوارج ، فبمقتلهم سينفرد بالحكم و لن يضطر إلى الخضوع إلى الشرط المتفق حوله و هو الالتزام بالشورى و أيضا يضمن ولاء العامة له .

لكن خطته باءت بالفشل أمام وعي هؤلاء الذين أدركوا مرماه " فسقط في أيدي الناس و قالوا قتل أولياء الله شهداء ففارقوه و اشتد بغضهم له"⁴ .

4- ابن عذاري ، البيان ، ص 230

1- ابن عذاري ، البيان ، ص 230

2- نفسه ، ص 230

3- الدرجيني ، طبقات المشايخ ، ص 100

يتهمياً لهم⁴ ، و رافق ذلك قيامهم "بمكاتبة القائم يسألونه الأمان"⁵ .

لقد أدركت الدولة الفاطمية أهمية هذا التفكك في كتلة الثورة و تأثيره الإيجابي في مسار الأحداث الذي أصبح في صالحهم ، و عملت على تكريسه و توسيعه ليشمل قبائل أخرى حيث نشطت "مراسلات القائم للبربر"⁶ تحثهم على الانسحاب من الثورة و العودة إلى حضن الدولة دون خوف من العقاب، و كان من نتائج ذلك أن بعض أتباعه "هرب إلى المهديّة و رحل آخرون إلى مواطنهم"⁷ ، و إذا أخذنا بالاعتبار أن المالكية قد انسحبوا من الثورة و اتخذوا موقفاً سياسياً جديداً فإن هؤلاء المنسحبون الجدد الراجح أنهم كانوا من الخوارج خاصة الإباضية منهم .

لم يتوقف مسلسل التفكك عند هذا الحد بل انتقل إلى صفوف من ظل متشبثاً بالولاء لأبي يزيد و باستمرار الثورة ، فقد ظهر لهم أن سير المعركة بخطتها الحالية لم تعد في صالحهم ، بعد هذا التفكك الذي عرفته جبهتهم، و أن الموقف يستدعي إعادة قراءة من أجل الخروج بخطة جديدة تنقذ الموقف و تعيد رص الصفوف ، لذلك قرروا فك الحصار و العودة إلى القيروان دون مشاورة أبا يزيد⁸ . وعليه يمكن التأكيد أن جبهة الثوار تعرضت إلى تفكك واضح ، جزء انسحب بشكل نهائي من الثورة و اتخذ منها موقفاً عدائياً و يمثله المالكية ، و جزء انسحب من المعركة و عاد إلى موطنه دون أن يتخذ موقفاً معادياً للثورة

الملاحظ أن معظم الباحثين الذين درسوا أسباب إخفاق الثورة تغافلوا عن معالجة هذا الحدث و لم يعطوه الاهتمام اللازم رغم أهميته في مسار الثورة. فقد ركزوا على سببين يفسران إخفاق الثورة هما :

-السبب الأول هو السياسة الدموية التي مارسها أبا يزيد تجاه المناطق التي دخل إليها و التي أدت إلى نفور الناس منه و التحاقهم بصفوف الفاطميين.¹

-السبب الثاني هو قدوم زيري بن مناد* في حشد من قبيلة صنهاجة لمساعدة الفاطميين المحاصرين في المهديّة² .

إن هذين السببين وجيهين في تفسير الهزيمة لكنهما غير كافيين ، فتنبع الأحداث بروية و موضوعية بعيداً عن الأحكام المسبقة التي ألصقت بزعيم الثورة جعلني أنتبه إلى أن قرار أبا يزيد كشف ظهر المالكية في المعركة هو مفتاح تفسير لبداية نهاية الثورة ، و أن السببين السابقين مساعدين فقط . فقد كان لهذا القرار تأثير سلبي للغاية على تماسك جبهته بحيث أدى إلى بداية تفككها عندما أعلن أهل القيروان و كل المالكية انسحابهم من المعركة ، رغم محاولات أبي يزيد حثهم على العودة إلى الجبهة وإرغامهم على ذلك³ ، بل الأخطر من ذلك إقدام المالكية على إعادة قراءة المشهد السياسي على ضوء الحدث الذي وقع و خرجوا بقرار سياسي جديد هو العودة إلى حضن الدولة الفاطمية بعد اقتناعهم بأنها أقل ضرراً عليهم من أبي يزيد الذي أصبح عدو يجب القضاء عليه ، لذلك " دبروا القبض على أبي يزيد فلم

³- ابن الأثير ، الكامل ، ص 191

⁴- ابن خلدون ، العبر ، ص 18

⁵- ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص 190

⁶- ابن خلدون ، العبر ، ص 18

⁷- ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص 18

⁸- ابن الأثير ، الكامل ، ص 191

محمد الهادي الشريف ، تاريخ تونس ، ترجمة محمد الشاوش ، ط 3 ، 1993 ،

¹ - دار سراس ، تونس ، ص 46

* - هو مؤسس الدولة الزيرية الموالية للفاطميين و الذي لعب دور مهم في إنقاذ دولتهم من السقوط ، انظر ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ،

م 2 ، دار صادر ، بيروت ، 1978 ، ص 343

²- جورج مارسي ، بلاد المغرب و علاقتها بالشرق ، ص 176

إلا بتفكيك جبهة أبي يزيد و في المقابل تقوية جبهته باسترضاء الناس و استقطاب القبائل إلى صفه عبر السياسة السابقة و الاحتفاء بزعماء القبائل الذين تحالفوا معه مثل زيري بن مناد ، بمعنى تفكيك جبهة الثوار مقابل تقوية جبهته . لقد اضطر أبو يزيد إلى رفع الحصار و العودة إلى القيروان لإعادة ترتيب الأوضاع ، و حالة الضعف بدأت تظهر عليه و أصبحت مكشوفة للعيان ، و هذا ما شجع بعض القيروانيين على وضع خطة لقتله⁵ لكنهم فشلوا في ذلك .

و لاستعادة ما فقده ، و في محاولة منه لرفع معنويات أتباعه ، قرر التوجه نحو سوسة ، التي كانت بدورها غيرت من ولائها باتجاه الدولة الفاطمية ، من أجل إخضاعها من جديد " فحاصرها و نصب عليها المجانيق "⁶ ، و ليجهض هذه المحاولة قرر المنصور الخروج بنفسه لقيادة المدد نحو سوسة غير أن القادة نبهوه إلى خطورة ذلك على الدولة و ضرورة الاكتفاء بإرسال المدد لحماية المدينة ، وهذا ما حصل حيث "وصل المدد إلى سوسة فقاتلوا أبا يزيد فانهزم و لحق بالقيروان"⁷ .

لقد كانت عاقبة هذا الفشل و خيمة على أبي يزيد إذ منح ذلك ساكنة القيروان الشجاعة للإعلان عن موقفهم المعارض لأبي يزيد باتخاذ خطوة عملية في هذا الاتجاه حيث لم يسمح له " بالدخول إليها و امتنعت عليه "⁸ ، وقد قابل المنصور هذا الموقف من أهل القيروان بفرح شديد لأنه كان يعلم الأهمية

و فضل تبني سياسة الحياد ، و جزء بقي متشبثا بالثورة و لكن رفض السياسة المتبعة و طالب بمراجعتها .

لذلك يمكن التأكيد أن البداية الفعلية لإخفاق الثورة كانت بسبب تجاوز أبي يزيد لشرط ضمن له الانتصار وهو التوحد بين أنصاره بغض النظر عن المذهب و احترام التعددية داخل معسكره ، وهذا ما جعل تدخل زيري بن مناد لإنقاذ الدولة الفاطمية فعالا ، فقد وجد معسكر أبي يزيد في حالة تفكك و ضعف بين ، يسهل الانتصار عليه.

في ظل هذا الواقع الجديد تولى الحكم في المهدي المنصور بالله¹ بعد وفاة والده القائم في " شوال سنة أربع و ثلاثين و ثلاثمائة "² ، و قد أظهر الحكمة و الاقتدار و الحزم منذ البداية ، " فقد أخفى موت أبيه "³ مدة من الزمن حتى لا تتعرض جبهته للاهتزاز ، كما افتتح حكمه باتخاذ تدابير تطمينية للسكان و تأليفية لمنتقدي الدولة و تأديبية ضد المفسدين ، " فاستفتح أموره بإطلاق المحبوسين الذين حبسهم القائم بسبب القدح في الدولة و قتل الذين يسعون في فساد الدولة و خراب المملكة و وصل الفقراء و المساكين "⁴ ، و شملت سياسة العفو حتى الثوار أنفسهم ، فكل من ترك جيش أبا يزيد كان يحصل على العفو وكذا مع ساكنة المناطق التي استرجعها والتي كانت موالية لأبي يزيد ، و ذلك كله في إطار العمل على تفكيك جبهة الثوار التي ظهر فيها الانقسام ، فقد كان على وعي تام أن النصر لن يتحقق

4- المقرئزي ، المقفى ، ص 144

5- ابن الأثير ، الكامل ، ص 191

6- ابن خلدون ، العبر ، ص 19

7- نفسه

8- ابن الأثير ، الكامل ، ص 193

1- اسماعيل بن محمد بن عبيد الله المهدي ، ثالث خلفاء الدولة الفاطمية ، تولى الحكم سنة 334 هـ إلى وفاته سنة 341 هـ انظر المقرئزي ، المقفى الكبير ، ص 142

2- ابن الأبار ، الحلة السرياء ، ج 2 ، ص 289 ، ابن خلدون ، العبر ، ص 19

3- ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج 1 ، ص 235

و استمر النزيف الداخلي في معسكره باتخاذ بعض أهم القبائل ، التي اعتنقت سابقا مبدأ الثورة و نشطت من أجل إنجاحها ، قرارا بالانسحاب من المعركة بعد أن خاب أملها في تصحيح مسار الثورة ، فأقدمت على طلب الأمان من المنصور "كهواره و بنو كملان و مزاتة"⁵ . بل زاد الأمر سوءا على أبي يزيد عندما التحق أحد أشهر القادة الزناتيين الذين ثاروا قبله على الفاطميين - و الذي كان اتخذ موقف الحياد من هذه الثورة - وهو محمد بن خزر الزناتي⁶ بجهة المنصور و الذي طلب منه " أن يرصد أبا يزيد"⁷ ، و قد سبقه قدوم "زيري بن مناد بعساكر صنهاجة"⁸ ، فأصبحت جبهة المنصور أكثر قوة و تماسكا من السابق .

وبفضل هذه المتغيرات تمكن المنصور من تحقيق انتصارات متتالية ، فأصبح يلاحق أبا يزيد و من تبقى معه من موالين حيثما ذهبوا ، متبعا خطة إرهاب العدو و عدم السماح له بالتقاط الأنفاس لإعادة بناء الصفوف . فقد هزمه عند مدينة مسيلة ثم تبعه في جبل كتامة و عجيسة حيث انتصر عليه هناك ، بعدها لجأ أبا يزيد إلى قلعة كتامة متحصنا فيها لكن المنصور تمكن من اقتحام القلعة ، فاعتصم أبو يزيد بقصر في "ذروة القلعة فأحيط به و اقتحم"⁹ ، و قد تمكن أبا يزيد بمساعدة من بعض أتباعه من الفرار لكنه لم يبتعد كثيرا حيث عثر عليه جريحا

السياسية لعودة القيروان إلى حضن الدولة ، فسارع إلى كتابة "كتاب يؤمن فيه أهل القيروان ،

و أصبح راحلا إلى المدينة فخيّم خارج المدينة .. فخرج إليه الناس فأمّنهم و وعدهم خيرا"¹ .

إن هذا التحول الذي وقع في مسار الأحداث جعل آمال المنصور تتقد لإنهاء الثورة عند هذه المحطة ، من أجل للخروج من حالة الانهك التي أصبحت عليها الدولة و لتجنب المنطقة مزيدا من سفك الدماء ، و خاصة بعد مراسلة أبا يزيد إياه "يسأله في رد عياله و أولاده و نسائه و نساء رجاله و أولادهم الذين أخذوا من القيروان و حلف و أكد أنه إن ردهم رجع إلى الطاعة و على أن يعطيه الأمان في نفسه و ولده و أهله و يخلي بينه و بين السكنى في منزله بتقيوس فأجابه لذلك"² ، بيد أن الأمر لم يكن سوى حيلة لجأ إليها أبو يزيد ليخلص أهله من الأسر ، و ذلك لأنه كان لازال متشبثا بثورته و معتدا بقوته و معتقدا أن أبا المنصور فعل ذلك خشية منه³ . و يظهر أن أبا يزيد كان غافلا عن إدراك خطورة التحولات التي وقعت في جبهته ، فبدل أن يعمل على إعادة بناء جبهته الداخلية ، كما طلب منه بعض أنصاره ، قام بالاستمرار في المعركة دون تغيير في خطته ، حيث وجه أتباعه نحو القيام بحملات كر و فر و العمل على قطع الطريق بين المهديّة و القيروان و سوسة⁴ ، لكن ذلك لم يوقف حالة التراجع التي دخلت إليها الثورة منذ قراره الخاطيء الذي اتخذته في حصار المهديّة ، فقد تتالت عليه الهزائم

1- المقرئزي ، المقفى ، ص 144

2- المقرئزي ، نفسه ، ص 149

3- ابن الاثير ، الكامل ، ص 195

4- نفسه ، ص 174

5- المقرئزي ، المقفى ، ص 157

6- ثار على المهدي و شكل مصدر إزعاج للدولة الفاطمية ، لكنه لم ينضم إلى

ثورة أبي يزيد و كان و لاءه الأكبر للدولة الاموية بالاندلس انظر ابن عذاري ،

البيان ، م 1 ، ص 209

7- ابن الاثير ، الكامل ، م 7 ، ص 195

8- المقرئزي ، المقفى ، ص 149

9- ابن خلدون ، العبر ، ص 20

، التي كانت تتأثر سياسيا بتقلبات الأوضاع في بلاد المغرب، مدركا لحقيقة الخلاف المذهبي بين الدولة الفاطمية و الدولة الاموية و العداء التاريخي بينهما ، وهذه الأخيرة لم تتردد في مساندة الثورة باعتبارها فعلا يمثل ساكنة المنطقة ككل ، يمكنه القضاء على الدولة الفاطمية التي تشكل نقيضها الايديولوجي المهتدة لمصالح الدولة الأموية في بلاد المغرب .

لكن مع تطور الأحداث ظهر أن أبا يزيد لم يكن تعامله مع هذه القاعدة الاجتماعية تعاملًا مبدئيًا أو خيارًا استراتيجيًا ، مبنيا على قناعات شرعية أصيلة ، إنما تعاملًا مصلحيا و تكتيكيا لا غير . فخطابه الذي كان قائما على رفض الظلم باعتباره فعلا مسلطا على الجميع و مبتعدا عن التعصب المذهبي ، وعلى التبشير بأفكار حول بناء نظام سياسي يقوم على احترام مبدأ الشورى و مبدأ العدل ، لم يصمد كثيرا أمام الواقع ، فبمجرد أن لاحت بشائر النصر في الأفق حتى عادت النزعة المذهبية لتطغى على تفكيره السياسي ، عندما قرر التخلي عن حلفائه المالكية في المعركة و الذي كان سببا في تفكك قاعدته الصلبة و انهزامها في النهاية ، كما أظهر سلوكه الاستبدادي في سيرته مع أتباعه ، في استعادة مرضية لسلوك السلطة التي تار عليها و الذي استشرى في الثقافة السياسة للمجتمع العربي الاسلامي منذ الدولة الأموية ، عندما بدأ يتضايق من خطاب النقد الموجه لبعض سياساته من طرف نخبة أتباعه من الفرقة النكارية نفسها ، فلم يتردد في أوج قوته من قمعها و قتل بعضهم

" في مكان وعر.. فأخذ و حمل إلى المنصور"¹ ، الذي فرح كثيرا لذلك و عمل على مداواة جراح أبا يزيد لكن دون فائدة حيث مات في "محرم سنة ست و ثلاثين و ثلاثمائة"² . وبذلك انتهت ثورة أبا يزيد بالفشل و عادت سلطة الفاطميين إلى المنطقة أكثر قوة و حزما و زكت طموحها للامتداد في اتجاه الشرق و كان لها ذلك بدخول قوات الفاطميين إلى مصر سنة 358 هـ

خلاصة :

تشكل ثورة أبي يزيد نموذجا للثورات التي امتلكت مقومات النجاح كاملة لكنها أخفقت في النهاية ولم تحقق إنجازها المنتظر ، فكانت الهزيمة . فلقد تمكن من بناء قاعدة اجتماعية واسعة حول ثورته ضمت إليها أطرافا ذات مذهبيات و قبائل متعددة ، كان من شبه المستحيل أن تجتمع في ظروف مغايرة . فقد اقتنعت هذه الأطراف المتعددة بأن الخلاص من السلطة القائمة لا يمكن أن يتحقق إلا بالتوحد حول موقف سياسي عام، يحقق قاعدة اجتماعية صلبة يمكن من خلالها الاطاحة بالسلطة القائمة . وأبو يزيد كان مدركا لذلك ، فمن خلال خطابه السياسي الذي ركز على التشهير بالسياسة الظلمة للدولة و في نفس الوقت الوعد بإقامة دولة العدل و الشورى ، وحث الرعية - بغض النظر عن قبائلهم و عن مذاهبهم - للانضمام لثورته ، نجح في إقامة جبهة عريضة مناصرة للثورة حققت نجاحا مبهرًا كما أن يقضي على الدولة الفاطمية .

كما انتبه لدور العامل الخارجي في نجاح الثورة أو إخفاقها ، لذلك سارع إلى طلب المساعدة من الدولة الأموية بالأندلس

²- ابن الاثير ، المصدر السابق ، 197

¹- ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، 1996 ، ص 268

لقد كان الابتعاد عن خطاب التعصب المذهبي و احترام التعددية و تمثل قيمة الشورى في الممارسة السياسية شرطا رئيسا لضمان نجاح الثورة و هذا ما تحقق على الارض في البداية ، و تجاوز هذا الشرط بالعودة إلى خطاب الأحادية المذهبية و رفض النقد و نجح السلوك الاستبدادي في التعامل مع الأنصار كان كفيلا بتحقيق الانتصار للسلطة القائمة و انكفاء الثورة على نفسها.

قائمة المصادر و المراجع:

- كرين برينت، تشریح الثورة، ترجمة سمير الجلي، دار الفارابي، لبنان، ط 1، 2009
- 2 جوردون مارشال، موسوعة علم الاجتماع، م 1، ترجمة محمد الجوهري و آخرون، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط 1، 2000
- ³ - محمد سيلا، موسوعة المفاهيم الأساسية في العلوم الانسانية و الفلسفة، منشورات المتوسط، ميلانو، ط 1، 2017
- ⁴ - عزمي بشارة، في الثورة و القابلية للثورة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ط 1
- ⁵ - إيريك هوبزباوم، عصر الثورة، ترجمة فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط 2، 2008
- ⁶ - آلدو سكيافونه، سبارتاكوس: السلاح و الانسان، ترجمة د أماني فوزي حبشي، مشروع كلمة للترجمة، أبو ظبي، ط 1، 2018
- محمد المبكر، شمال افريقيا القديم: حركة الدواوين و علاقتها بالدونانية، منشورات كلية الاداب بالرباط، 2001⁷
- ⁸ - ابن الاثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار ابن حزم، بيروت، ط 1، 2012
- ⁹ - أبو الفرج الاصفهاني، مقاتل الطالبين، تحقيق السيد أحمد صقر، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط 4، 2006
- ¹⁰ - خليفة بن خياط، تاريخ ابن خليفة، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار طيبة، الرياض، ط 2، 1985
- ¹¹ - الطبري، تاريخ الرسل و الملوك، م 6، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط 2، 1971
- ¹² - سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ج 1، دار المعارف، الاسكندرية، 1993
- ¹³ - القاضي عبد الجبار، تثبيت دلائل النبوة، م 2، تحقيق عبد الكريم عثمان، دار العربية، بيروت
- ¹⁴ - أحمد العثماني، دور الفتوحات العربية الاسلامية في التحول الحضاري لبلاد المغرب، دار الأكاديميون، الأردن، ط 1، 2018
- ¹⁵ - ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط 5، بدون تاريخ،
- 16- ابن خلدون كتاب العبر، م 7، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، ص 16،
- 17 - ابن عذاري، البيان، م 1، تحقيق بشار محمد عواد، دار الغرب الاسلامي، تونس، ط 1، 2013
- ¹⁸ - ابن الاثير، الكامل، م 7، تحقيق خيري سعيد، دار التوفيقية، القاهرة، بدون تاريخ
- 19- ابن حماد، أخبار بني عبيد، تحقيق التهامي نقرة، دار الصحوة، القاهرة، بدون تاريخ
- ²⁰ - ابو الفدا، المختصر في أخبار البشر
- ²¹ - الفرد بل، الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط 3
- ²² - حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب و الاندلس، دار الرشاد، القاهرة، ط 5، 2000

- 23 - ابن زكريا، سير الأئمة و أخبارهم، تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب لاسلامي، بيروت، ط 2، 1982
- 24 - الشماخي، السير، ج1، تحقيق أحمد بن سعود السيادي، وزارة التراث القومي و الثقافة، سلطنة عمان، 1987
- 25 - الدرجيني، طبقة مشايخ المغرب، تحقيق ابراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، بدون تاريخ
- 26 - الجوذري، سيرة الاستاذ جوذر، تحقيق محمد كامل حسين، دار الفكر العربي، القاهرة، 1955
- 27 - المقرزي، المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط 1، 1987
- 28 - المقرزي، اتعاظ الحنفا، م 1، تحقيق جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، القاهرة، ط 2، 1996
- 29 - المالكي، رياض النفوس، ج 2، تحقيق البشير البكوش، دار الغرب الاسلامي، ط 2، 1994
- 30 - أبو العرب تميم كتابه المحن، تحقيق يحي الجبوري، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط 3، 2006
- 31 - البكري، المسالك و الممالك، ج 2، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت
- 32 - القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، ط 2، 1986
- 33 - الباروني، الازهار الرياضية في أئمة و ملوك الإباضية، دار الحكمة، لندن، ط 1، 2005
- 34 - أحمد المختار العبادي، سياسة الفاطميين نحو المغرب و الاندلس، مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدير، م 5، ع 21
- سنة 1957،
- 35 - جورج مارسيه، بلاد المغرب و علاقتها بالشرق، ترجمة محمود عبد الصمد هيكل، منشأة المعارف بالاسكندرية، 1971
- 36 - ابن حيان القرطبي، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، دار الثقافة، بيروت، 1965
- 37 - الداعي إدريس عماد الدين، تاريخ الفاطميين، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط 1، 1985
- 38 - ابن الأبار، الحلة السراء، ج 2، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط 2، 1985
- 39 - محمود اسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب، رؤية للنشر و التوزيع، القاهرة، ط 1، 2010
- 40 - ابن حزم، الفصل بين الملل و النحل، ج 4، تحقيق محمد ابراهيم نصر، دار الجيل، بيروت، ط 2، 1996
- 41 - ابن مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ و الأخبار، تحقيق علي الزواري، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط 1،
- 1988
- 42 - القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج 1، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1998
- 43 - الدباغ، معالم الايمان، ج 3، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة بتونس، 1978
- 44 - المقرري، نفح الطيب، م 1، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968
- 45 - ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج 1، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1978
- محمد الهادي الشربف، تاريخ تونس، ترجمة محمد الشاوش، دار سراس، تونس ط 3، 1993 - 46
- 47 - ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1996
- المراجع باللغة الأجنبية:

48 - gautier, les sciecles obscure de lhsitoire de maroc ,payot , paris , 1927

49 - henri terrasse,histoire du maroc, edition atlantide , casablanca

50 - François Decret , Decret L afrique du nord dans l antiquité, Paris

تاريخ الاسترقاق في بلاد الغرب الإسلامي والأندلس خلال الحقبة الوسيطة

ماجدة مولود رمضان الشرع
الأستاذ المساعد في التاريخ الإسلامي بقسم التاريخ
كلية الآداب / جامعة طرابلس ليبيا

المقدمة :

عُرِفَت هذه الكلمة بالمعنى الاصطلاحي والمتداول في الكثير من الكتب العلمية السياسية منها والتاريخية بأنها ترمز إلى حالة الإنسان الذي هو ملك لإنسان آخر، فالرقيق الشيء الذي يملكه سيده، يستوي في ذلك مع باقي المنقولات التي يملكها سيده⁽³⁾، وهو النظام الذي يكون فيه وضع إنسان ملكاً لآخر لسيد له السيادة المطلقة على جسده وعمله⁽⁴⁾.

1- نمطية التجارة بالرقيق :

كانت التجارة بالرقيق مهنة رائجة في بلاد المغرب العربي الإسلامي والأندلس ، حيث جرت العادة على استغلال هؤلاء في كافة متطلبات الطبقة الخاصة الحاكمة والطبقة الغنية ، فكان التاجر يضع مواصفات معينة في تجارته للرقيق منها خلوهم من الأمراض المزمنة والمعدية : "فكم من نحيفة بيعت بخضبة، وسمرا كمدة

شهدت بلاد المغرب العربي الإسلامي والأندلس خلال الحقبة الوسيطة ظاهرة انتشار الرق، حيث تعددت مناطق الإتيان به كما تعددت طريقة جلبه للمنطقة، فكان هناك الرقيق المغربي والسوداني، إضافة إلى الرقيق الأوروبي .

في هذا البحث الموجز سيتم التطرق إلى إعطاء فكرة حول مدلول كلمة الرق لغةً واصطلاحاً، أيضاً سيتم الحديث على نمطية تجارة الرقيق، والتصنيف التجاري للرق في بلاد المغرب العربي الإسلامي والأندلس.

الرق بكسر الراء الاسترقاق بمعنى العبودية وهو مصدر (رق) ويطلق الرق على الذكر والأنثى على حد سواء وجمعه أرقاء⁽¹⁾، والرقيق هو عبد لا يملك ما يملكه الحر من القضاء والشهادة وغيرها⁽²⁾.

(1) المقرري ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، دار الفكر ، بيروت ، 1987م ، ص 234.
(2) أحمد الشرباصي ، المعجم الاقتصادي الإسلامي ، دار الجيل ، بيروت ، 1981م ، ص 199.
(3) محمود سلام زناتي . النظم الاجتماعية والقانونية في المجتمعات البدائية والقبلية، در الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1999م ، ص 56.
(4) أحمد فؤاد بليغ ، مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة، ج 1 ، منشورات المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 1988م ، ص 78.

بصفتهم أهل ذمة، فيتمتعون بالأمان على أرواحهم وأموالهم مقابل دفع الجزية فخلق لهم هذا الدافع الكبير في أن يكونوا المسيطرين والمتحكمين في تجارة الرقيق خلال العصور الوسطى وعلى مختلف فتراتها الزمنية والمكانية⁽³⁾،

2-التصنيف التجاري للرق في بلاد المغرب العربي الإسلامي والأندلس:

هناك تصنيف وتقسيم للرقيق وضعه التجار؛ تبعاً للمنطقة التي منها التي جيء به إلي بلاد المغرب والأندلس. وهذا التصنيف يتمثل في الآتي :

-الاسترقاق بالمغرب :

ساهم الفتح الإسلامي لبلاد المغرب والأندلس خلال الفترة 22- 91هـ / 643- 709م في وجود نوع من الرقيق بالمغرب الإسلامي، وأضيف إلي تكوين الجيش الإسلامي آنذاك؛ ونظراً للخصوصية العسكرية لهذه المرحلة ذكر ابن عذارى أن الرقيق زمن عبد الله بن أبي سرح والي مصر (27- 37 هـ / 646 - 656م) أيام الخليفة عثمان بن عفان (35- 41هـ / 654- 661م) عنه فيقول في ازدياد حيث قال : "بعث المسلمين في جرائد الخيل، يغيرون على أطراف إفريقية، فيصيبون كثيراً من الأنفس والأموال"⁽⁴⁾.

بعث القائد معاوية بن حديج سنة 45هـ / 660م جيشاً إلى⁽⁵⁾ منطقة جلولاء⁽⁶⁾ فقاتل الروم المتحصنين

بصفراء مذهبة، وممسوحة العجز بثقيلة الروادف، وبطينة بمجدولة الحشا وبجرا الفم بطيبة النكهة، وكم صفروا البياض الحادث عن القروح في العين، والبرصو البهقفي الجلد، وجملوا العين الزرقاء كحلاء، وكم من مرة حمروا الحدود المصفرة، وأكسبوا الشعر الشقر حالك السواد، وجعدوا الشعر السبطة، وبيضوا الوجوه المسمرة، ودملجوا السيقان المعرقة، وأذهبوا آثار الجدري والوشم والحكة، وكم من مريض يبع بصحيح و غلام تجارية⁽¹⁾.

لعب اليهود دوراً كبيراً في التجارة بالرقيق ، حيث كانوا دائمي السفر والتنقل بين ربوع بلدان المشرق العربي الإسلامي والمغرب ، بالإضافة للدول الأوروبية ، وكانوا يتقنون عدة لغات منها الصقلية والتي تساعدهم على فهم تجارة الرقيق الصقلي والإفريقية تدل على أنهم كانوا يمرون عبر بلاد الفرنجة لنقل بضاعتهم الفارسية والعربية وقد ذكرهم ابن خردادبة بأنهم كانوا يتاجرون منذ القديم بالرقيق الذي يجلبونه من بلاد الصقلية إلى جانب سلع أخرى كالديباج والمسك وجلود الخنز والفراء والسيوف والسمور، كما كان لهم نشاط في بعض لدان العالم آنذاك مثل الصين والهند وبلاد المغرب وجنوب الصحراء⁽²⁾.

استغل التجار اليهود الاستقرار الاقتصادي الذي شهدته البلاد المغربية والأندلسية ، بالإضافة إلي التسامح الديني

(4) ابن عذارى ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1 ، تحقيق : ج- س - كولان . ليفي بروفنسال ، دار صادر ، بيروت ، 1977م ، ص 8.

(5) ابن عبد الحكم ، فتوح أفريقية والأندلس ، دار صادر ، بيروت ، (د- ت) ص 34- الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق : إحسان عباس ، مكة لبنان ، بيروت ، 1984م ، 168.

(6) جلولاء : مدينة تقع في أفريقية تمتاز بكثرة البساتين والأشجار .

(1) ابن بطلان ، رسالة في شري وتقليب العبيد، تحقيق عبد السلام هارون، سلسلة نواذر المخطوطات مطبعة لجنة التأليف الترجمة ، القاهرة ، 1945م ، ص 345.

(2) ابن خردادبة ، المسالك والممالك ، طبعة ليذن ، 1868 ، ص 165.

(3) نقولا زيادة ، تطور الطرق البحرية والتجارة بين البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي ، مجلة الكويت ، 4ع ، 1966م .

وسى منهم عشرة آلاف، ثم واصل مهاجمة قبائل زناته، هواره، وكتامة فكان يقتل ويصيب منهم سبياً، كما هاجم قبيلة صنهاجة فقاتلهم ووصل عدد سبيه مائة ألف رأس (7).

ثم لحق من فر من القبائل المغربية إلى أقصى المناطق الغربية، بعد أن قطع نحر الملوية فحارب قبيلة أوربة، وبلغ سبيه فيهم مائتي ألف رأس منهم بنات ملوك المغرب (8).

كان للجواري سمات، حيث تميزن بحسنهن وجمالهن، فأبحرن المشاركة الفاتحين فتم سبيهن، فألحوا على طلبهن للإنجاب واتخاذهن أمهات أولاد حتى أن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (65-86هـ / 685-705م) قال فيهن: "من أراد الباءة فعليه بالبريريات" (9).

شهد القرن الخامس الهجري/ الأول الميلادي ظهور عدد من الكيانات السياسية مختلفة الانتماء سياسياً ومذهبياً نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر - الإمارة الزيرية بالمغرب الأدنى (361-543هـ / 972-1148م) والدولة الحمادية بالمغرب الأوسط (406-547هـ / 1017-1152م)، حيث مرت هذه الدول بأوضاع سياسية ساهمت في إحداث بعض المشاكل الداخلية من تمردات وثورات وتدخل

بها وهزموهم، ثم دخلوا المدينة فأصابوا فيها سبياً كثيراً، وفي سنة 50هـ / 665م تولى القائد عقبة بن نافع قيادة الجيش الإسلامي بالمغرب الأدنى، فافتتح مجموعة من المدن وسبى النساء والولدان إلا أنه انشغل ببناء قاعدة ارتكاز له وهى مدينة القيروان، فساهم هذا الانشغال في التوقف عن سياسة السبي والفتح واستمر ذلك حتى تولى عقبة بن نافع مقاليد حكم المنطقة في الولاية الثانية عقب إعفاء المهاجر بن أبي دينار من منصبه، ففرغ عقبة للفتح وللسبي مرة أخرى، حيث قام بفتح (1) مدينتي باغاية (2) وقرطاجنة (3) وسبى منهم خلقاً كثيراً (4).

أيضاً قام بفتح بلاد السوس بالمغرب الأقصى فقتل وسبى الكثير من النساء لم ير مثلهن في الحسن حتى بيعت الواحدة في المشرق بألف دينار (5)، كما استطاع القائد حسان بن النعمان الذي تولى القيادة عقب مقتل عقبة بن نافع سنة 65هـ / 682م في تهودة فرض حصار على قرطاجنة التي عاد الروم للسيطرة عليها فقتل منهم قتلاً ذريعاً وسباهم، وقد بلغ عدد سبيهم خمسة وثلاثين ألفاً (6).

كذلك كان للقائد موسى بن النصير نصيب كبير في عملية السبي واسترقاق الرقيق، حيث أشتهر سبيه فبلغ عدداً مهولاً، فشن هجمات على جبل زغوان فقاتلهم

الحميري، المصدر السابق، ص 168.

(1) المالكي، رياض نفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساکهم وسير من أخبارهم وفضائلهم أوصافهم، ج1، تحقيق: بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م، ص 33.

(2) باغاية: مدينة بإفريقية تقع بالقرب من جبل الأوراس، تمتاز بكثرة الأنهار المزراع.

الحميري، المصدر السابق، ص 76.

(3) قرطاجنة: مدينة بالمغرب الأدنى كانت تمثل الدين المسيحي.

الحميري، المصدر السابق، ص 462.

(4) المالكي، المصدر السابق، ج1، ص 33.

(5) الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1970م، ص 70.

(6) ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص 37.

(7) مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية، بغداد، (د-ت) ص 78.

(8) ابن الأثير. الكامل في التاريخ، ج5، دار الكتب العلمية. بيروت، 1988م، ص 233.

(9) التجاني، تحفة العروس ومنتعة النفوس، تحقيق: جليل العطية، دار الثقافة الدينية، القاهرة، (د-ت) ص 89.

ولكثرة أعدادهم في المغرب وفي بلاد الأندلس تم استخدامهم في المجال العسكري والخدمي في قصور الأمراء والخلفاء والسلطين، حيث استخدمهم طارق ابن زياد في التجسس على الخصوم أثناء فتحه للأندلس⁽⁶⁾، كما استخدمهم الأغالبة والفاطميون فيما بعد، حيث كان لعبيد الله المهدي الفاطمي (296-322هـ / 909-934م) اثني عشر ألف مملوك بين رومي وحبشي⁽⁷⁾ وكان دورهم في البلاط الفاطمي مقتصرًا على حراسة القصور ومرافقة الأمراء في المواكب أو استخدامهم في تعذيب المخالفين للسلطة الحاكمة الفاطمية، كما حدث مع جعفر بن خيرون الكتامي أثناء تمرده على الخلافة الفاطمية ف قيل أنه مات عندما قفز عليه العبيد السودان على السرير "فقفزوا عليه حتى مات"⁽⁸⁾ ومن أشهر الرقيق السودان آنذاك صندل الفتي الذي كان يملك فرقة عسكرية كان لها الدور في القضاء على ثورات قبيلة كتامة ضد الفاطميين⁽⁹⁾.

تميز الرقيق السوداني بقدرتهم على الصبر والتحمل؛ لذلك استكثر منهم الخلفاء والأمراء في المغرب والأندلس، حيث استعان بهم أحد ولاة مدينة مالقة

خارجي من دول الجوار مثل ما حدث زمن الإمارة الزيرية أيام حكم أميرها المعربن باديس (405-453هـ / 1016-1053م) والذي نشب خلاف بينه وبين الخلافة الفاطمية في مصر حول رفض الزيريين التعامل بالمذهب الشيعي الإسماعيلي في بلاد المغرب الإسلامي؛ ومن تم القطيعة السياسية والمذهبية والاقتصادية المشهورة التي حدثت سنة 440هـ / 1048م⁽¹⁾، فساهم هذا في إرسال الفاطميين لقبائل بن هلال وبني سليم العربية إلى بلاد المغرب الإسلامي خاصة الأدنى منه⁽²⁾، حيث وقعت مناوشات و معارك بين تلك الكيانات السياسية التي كانت متواجدة في المنطقة آنذاك والتي أعقبتها فيما بعد وبين القبائل المذكورة آنفًا، ما أدى إلى استرقاقهم لبعض؛ لغرض الحرب ضد الطرف الآخر⁽³⁾.

-الاسترقاق بالسودان :

وهم عادة ما يؤتي بهم من بلاد الحبشة والنوبة، والزغاوة⁽⁴⁾ وفيهم قال ابن خلدون: "إنما تدعن في الغالب أمم السودان لنقص الإنسانية لديهم، وقربهم من عرض الحيوانات العجم،.....ويرجو بانتظامه في ربة الرق حصول رتبة أو إفادة مال أو عز"⁽⁵⁾.

(4) ابن النديم، الفهرست، دار صادر، بيروت، (د-ت)، ص 66.
 (5) ابن خلدون، المقدمة، دار الأرقم بن الأرقم، القاهرة، 2006م، ص 93.
 (6) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص 484.
 (7) المالكي، المصدر السابق، ج 1، ص 63.
 (8) اليماني، سيرة جعفر الحاجب، تحقيق: حسام خضور، دار الغدير، بغداد، 2009م، ص 44.
 (9) اليماني، المصدر السابق، ص 44.

(1) للإطلاع أكثر على تلك الأحداث يُنظر إلي: ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: عماد الدين زكي وآخرين، مكتبة التوفيقية، القاهرة، (د-ت) ج 8، ص 165- ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار بلاد الأندلس والمغرب، ج 1، ص 269- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 8، ص 39-النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج 24، تحقيق: حسين نصار وعبد العزيز الأهواني، الهيئة المصرية، القاهرة، 1983م ص 209- المقرزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج 1، تحقيق: جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1999م، ص 190.
 (2) المقرزي: اتعاظ الحنفا، ج 2، ص 216-217.
 (3) عبد الإله بنمليح، الرق في المغرب والأندلس، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 2004م، ص 132.

" حسان الوجوه، بيض الألوان، منشيات القدود لا تنكسر لمن نهود، لطاف الخصور ضخام الأرداف، واسعات الأكتاف، ضيقة الفروج، المستمتع بإحداهن كأنه يتمتع ب بكر" (6).

كانت المسالك والطرق التجارية الخاصة بتجارة الرقيق تتمثل في عدة طرق وفروع وهتبدأ من برقة وطرابلس بالسودان الأوسط وعبر صحراء ثم يسير الى مناطق السودان الأوسط وهي الكانم ثم يمر بجبل نفوسة ثم بعد ذلك يتجه إلى غدامس ، ثم غانة في السودان الغربي (7) .

أما المغربين المغرب الأوسط والأقصى فكانت الطر التجارية تبدأ من مدينة تلمسان و تاملت ، وأودغست ثم إلى بلاد السودان ، عبر وجدة، فاس، سجلماسة، درعة(8) .

-استرقاق الأورويين :

يتمثل في الرقيق الصقلي (السلاف) والذي تم الاتيان بهم من القارة الأوروبية خاصة من المناطق الواقعة في آسيا الصغرى والمناطق الشمالية منها ، إضافة إلى بلغاريا وأوكرانيا ومقدونيا و صربيا (9) ، أول من استخدمهم في الأندلس هو الحكم الربضي (180 - 206 هـ / 796 - 822 م) ، حيث وصل عددهم قرابة الخمسة عشر ألفا (10) .

الأندلسية ويدعي أبو القاسم الحمودي في إدارة بعض الأعمال والجيش (1) ، أيضا استقدم منهم الأمير المرابطي يوسف بن علي بن تاشفين (500 - 537 هـ / 1106 - 1143 م) أعداد تقدر بألفين فرس وأدخلهم في تشكيلة الجيش (2) .

كان للرقيق السوداني دوراً بارزاً في معركة الزلاقة (3) ، حيث ذكر المقرئ في كتابه نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب أن عددهم في قوام الجيش المرابطي وصل إلى الأربعة آلاف فارس " ولم تنزل الكرات بينهم تتوالى إلى أن أمر أمير المسلمين حشمه السودان، فترجل منهم زها أربعة آلاف ودخلوا المعترك بدرق اللطم، وسيوف الهند، ومزاريق الزان فطعنوا الخيل فرمحت بفرسانها، وأحجمت عن أقرانها وتلاحق الأذفونش بأسود نفذت مزاريقه، فأهوى ليضربه بالسيف" (4).

كما استخدم المرابطون الرقيق السوداني في حراسة القوافل التجارية والإدلاء لها في توضيح دهاليز الطرق التجارية في الصحراء (5) ، أيضا كان للجواري السودانيات نصيب في الاسترقاق ؛ حيث استخدمن في خدمة القصور وفي حفلاته وسهراته المجانية والصاخبة فصور لنا البكري هيئة تلك الجواري فقال :

(4) المقرئ ، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الخطيب ، ج 4، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1997م ، ص 366.
(5) المصدر نفسه ، الجزء والصفحة .
(6) البكري ، السالك والممالك ، ج 2 ، دار صادر ، بيروت ، 1988 ، ص 45.
(7) مؤلف مجهول ، الاستبصار ، ص 67- الحميري ، المصدر السابق ، 33.
(8) البكري ، لمصدر السابق ، ج 2، ص 66.
(9) محمد شفيق غربال ، الموسوعة العربية الميسرة ، ج 3 ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 2010م ، ص 83.
(10) عبد الإله بنمليح ، المرجع السابق ، ص 127.

(1) ابن بسام ، المصدر السابق ، ص 487.
(2) إبراهيم بوتشيش ، ، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة، بيروت، 1998م ، ص 103.
(3) وقعت هذه المعركة الحاسمة والفاصلة في تاريخ العرب بالأندلس بين الدولة المرابطية بقيادة يوسف بن تاشفين وبمساندة المعتمد بن عباد والي مدينة أشبيلية ضد ملك قشتالة وليون المسيحيين بقيادة الملك ألفونسو السادس الذي هُزم فيها .
مؤلف مجهول ، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق : سهيل زكار ، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء ، 1979م ، ص 67.

فيما يتعلق بالمسالك والطرق التجارية التي كانت تتم عن طريقها جلب الرقيق الصقلي إلى بلاد المغرب العربي الإسلامي والأندلس فتتمثل في الطريق التجاري البري الذي يخترق أوروبا من ضفاف نهر الألب ماراً ببعض المدن والأقاليم الأوروبية منها إقليم السال عبر ألمانيا إلى فردان وليون وميناء ناربونة الفرنسي على ساحل البحر الأبيض المتوسط ثم إلى شبه جزيرة إيبريا (الأندلس) ثم يعبر التجار مضيق جبل طارق إلى سبتة ثم إلى تاهرت ثم إلى القيروان ومنها إلى مصر وبلاد الشام والعراق (5).

الخاتمة:

صفوة القول حول تم عرضه يتضح أن:

- قيام الفاتحين العرب من ثم قيادات الدول والإمارات إلى تشكلت فيما بعد في بلاد المغرب والأندلس باسترقاق سكان المنطقة الأصليين (المغاربية) واستخدامهم كعبيد للطبقة الخاصة الحاكمة، كما استخدموا في التشكيلة العسكرية لجيوش تلك الدول.

- بروز عدد من الشخصيات ذات صفة رقيق على الساحة السياسية والعسكرية، وقدرتها على إدارة مجريات المعارك في المنطقة وترجيح كفة النصر للدولة المنتمية إليها.

- أعتبر اليهود التاجر والممول الأول والأخير في إغراق الأسواق المغربية ولأندلسية بالرقيق وعلى مختلف أنواعه وتصنيفاته.

في زمن الإمارة الأغلبية وتحديدًا في عهد الأمير إبراهيم بن الأغلب (184-196هـ / 800-812م) تم إدخال عدد منهم إلى بلاد المغرب الأدنى، فقد كان الأمير المذكور يمتلك عددًا يقدر بألف صقلي (1).

أما في عهد الدولة الفاطمية فقد تم استخدامهم بشكل كبير من قبل السلطة الحاكمة وأوكلت لهم المناصب المهمة في الدولة مثل الجيش، وكان نظام الفاطميون في ذلك العمل على اقتناء هؤلاء الصقالبة ولاعتناء بهم منذ الصغر؛ لينشئوا على الطاعة والوفاء، فبرز منهم قادة كقيصر ومظفر الذين انفردا بالحكم، والنفوذ في المناطق المسندة لهما لإدارتها سنة 349هـ / 961م (2).

كما استخدموا كنوع من الهدايا الفاخرة التي عادة ما يتم تبادلها بين الخلفاء الفاطميون والأمراء الزييريون، حيث قام الأمير باديس بن منصور الزييري (386-406هـ / 996-1016م) بإرسال هدية إلى الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي (386-411هـ / 996-1021م) بمصر: "عشرون وصيفة بارعة الجمال وعشرة من الصقالبة" (3).

حصل تغيير في مرادفة الصقالبة في عهد الدولة المرابطية فأصبحوا يسمون بالعلاج بدل الصقالبة، وأشار لهم ابن عذارى عندما أرسلهم يوسف بن تاشفين إلى الأندلس بالقول: "وبعث إلى الأندلس فابتيع له جملة من الأعلاج" (4).

(3) ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص261.

(4) إبراهيم بوتشيش، المرجع السابق، ص78.

(5) عبد الإله بنمليح، المرجع السابق، ص194.

(1) القاضي النعمان، رسالة افتتاح الدعوة، تحقيق: وداد القاضي، دار الثقافة، بيروت، ص207.

(2) القاضي النعمان. المجالس والمسابير، تحقيق: الحبيب الفقهي، الجامعة التونسية وكلية العلوم الإنسانية، تونس، 1988م، ص487.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية :

- 1- ابن الأثير : (أبو الحسن الجزري) ت: 630هـ / 1233م ، الكامل في التاريخ، ج5، دار الكتب العلمية.بيروت، 1988م .
- 2- ابن بسام : (أبو الحسن على بن بسام الشنتري) ت 542هـ / 1147م، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، 2000م .
- 3- ابن بطلان : (أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون الغدادي) ت 458هـ / 1064م ، رسالة في شري وتقليب العبيد،تحقيق: عبد السلام هارون،سلسلة نواذر المخطوطات مطبعة لجنة التأليف الترجمة ، القاهرة ، 1945م.
- 4- البكري : (أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز) ت 487هـ / 1094م ، المسالك والممالك ، ج2 ، دار صادر ، بيروت ، 1988م.
- 5- التجاني: (أبو العباس أحمد بن محمد) ت 1171هـ / 1815م، تحفة العروس ومتمعة النفوس،تحقيق : جليل العطية ، دار الثقافة الدينية ، القاهرة ، (د-ت) ، ص89.
- 6- الحميري : (محمد بن عبد المنعم) ت 900هـ / 1495م ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق : إحسان عباس ، مكة لبنان ، بيروت ، 1984م.
- 7- ابن خردادبة : (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله) ت 280هـ / 820م ، المسالك والممالك ، طبعة ليدن ، 1868م.
- 8- ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون) ت 808هـ / 1406م ، المقدمة ، دار الأرقم بن الأرقم ، القاهرة ، 2006م ،
- 9- الرقيق القيرواني : (أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم) ت 420هـ / 1029م ، تاريخ إفريقية والمغرب ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1970م .
- 10- ابن عذارى: (أبو العباس أحمد بن محمد) ت712هـ / 1295م ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1 ، تحقيق : ج- س - كولان . ليفي بروفنسال ، دار صادر ، بيروت ، 1977م .
- 11- ابن عبد الحكم: (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله) ت 257هـ / 871م، فتوح أفريقية والأندلس، دار صادر ، بيروت ، (د- ت) .

- 12- القاضي النعمان : (أبو حنيفة بن محمد التميمي) ت 363هـ / 974م، رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق : وداد القاضي ، دار الثقافة ، بيروت ، (د- ت) .
- 13- _____ ، المجالس والمسائرات ، تحقيق : الحبيب الفقي ، الجامعة التونسية وكلية العلوم الإنسانية ، تونس ، 1988م.
- 14- مؤلف مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار ، تحقيق : سعد زغلول عبد الحميد ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، (د- ت) .
- 15- مؤلف مجهول ، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق : سهيل زكار ، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء ، 1979م.
- 16- المالكي : (أبو بكر عبد الله بن محمد) ، رياض نفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونسآكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم أو صافهم ، ج1 ، تحقيق : بشير البكوش ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1988م .
- 17- المقرئ : (أحمد بن محمد بن أحمد التلمساني) ت 1014هـ / 1631م ، نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الخطيب ، ج 4 ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1997م ،
- 18- المقرئ ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، دار الفكر ، بيروت ، 1987م .
- 19- المقرئ : (تقي الدين أحمد بن علي) ت 845هـ / 1441م اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، ج1 ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، 1999م
- 20- ابن النديم : (أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد) ت 438هـ / 1047م ، الفهرست ، دار صادر ، بيروت ، (د- ت) .
- 21- النويري : (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) ت 733هـ / 1333م ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج24 ، تحقيق : حسين نصار وعبد العزيز الأهواني ، الهيئة المصرية ، القاهرة ، 1983م .
- 22- اليماني : (محمد بن محمد) ، سيرة جعفر الحاجب ، تحقيق : حسام خضور ، دار الغدير ، بغداد ، 2009م .

ثانياً : المراجع العربية :

- 23- أحمد الشرباصي ، المعجم الاقتصادي الإسلامي ، دار الجيل ، بيروت ، 1981م .

- 24- أحمد فؤاد بلبع ، مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة ، ج 1 ، منشورات المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 1988م .
- 25- إبراهيم بوتشيش ،، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة، بيروت، 1998م .
- 26- عبد الإله بنمليح ، الرق في المغرب والأندلس ، مؤسسة الانتشار العربي ، بيروت ، 2004م.
- 27- محمود سلام زناطي . النظم الاجتماعية والقانونية في المجتمعات البدائية والقبلية، در الكتاب اللبناني، بيروت، 1999م.

ثالثاً المجالات والدوريات العلمية:

- 28- نقولا زيادة ، تطور الطرق البحرية والتجارة بين البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي ، مجلة الكويت ، ع 4 ، 1966م.

رابعاً: الموسوعات العلمية :

- 29- محمد شفيق غربال ، الموسوعة العربية الميسرة ، ج 3 ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 2010م.

علاقة الدولة بالمجتمع من خلال وثائق مخزنية: مرحلة السلطان عبد العزيز نموذجا

عبد الاله حداد
باحث في تاريخ المغرب المعاصر

شكلت العلاقة بين المخزن والمجتمع المغربي إحدى العلامات البارزة في تاريخ المغرب خلال القرن التاسع عشر، نظرا لطبيعة التحديات التي واجهتها البلاد، فعلاقة المخزن بالمجتمع المغربي على امتداد القرن التاسع عشر تميزت بلمد والجزر وإن كانت حالة الصراع والتوتر السمة الأساس التي طبعت العلاقة بينهما.

ففي الوقت الذي كانت البلاد تعرف حالة من عدم الاستقرار نتيجة التدخل الأجنبي بالبلاد، والمتمثلة في الهزائم العسكرية وفرض المعاهدات وانتزاع المكتسبات، كان المخزن المغربي مضطرا إلى تلبية رغبات القوى الأوروبية وكذلك حاجياته المالية بالخصوص، الأمر الذي يضطر معه إلى فرض كلف إضافية على القبائل لسداد ما بذمته من ديون وغرامات، هذا دون أن ننسى أن البلاد كانت تعرف جفاف وقلة في المحاصيل، مما يدفع بالقبائل إلى عدم الاستجابة لمطالب المخزن، وكنيجة لهذا التمرد والعصيان يوجه المخزن حركاته إلى هذه القبائل بغية إخضاعها لسلطته.

لقد شكلت حاجة المخزن إلى الجند والمال إحدى أبرز عوامل الصراع والاصطدام بالقبائل، فكيف عالج المخزن هذا الإشكال؟، وما طبيعة الأساليب التي نهجها المخزن في سياق البحث عن نوع من الانسجام والتوافق مع القبائل؟، هذا ما سوف نحاول الوقوف عليه من خلال مطلبين، سنعالج في المطلب الأول ردود فعل المخزن السياسية، المطلب الثاني دور المخزن الاجتماعي.

أولا: ردود فعل المخزن السياسية:

بعد وفاة الوزير أحمد بن موسى، تفاقمت الأزمة الاجتماعية في البلاد نتيجة لتردي الظروف الداخلية

وزيادة الضغوط الخارجية، إذ سيجد المخزن نفسه مجبرا على اتخاذ مجموعة من التدابير لإنقاذ ما يمكن إنقاذه في إطار دوره السياسي والاجتماعي، الذي يفرضه عليه بموجب ذلك التعاقد المسمى بـ "البيعة" بينه وبين الرعية، باعتباره مؤسسة عليا في البلاد.

1- التحكم في القبائل:

لعب الموقع الجغرافي دورا بارزا في سياسة المخزن مع المؤسسة القبلية، إذ كانت غالبا ما تتحدد تبعا للقرب أو البعد من المركز، هذه العلاقة اتسمت بالتنوع بحسب ما وقفنا عليه من خلال المصادر الوثائقية في إطار سياسة المخزن اتجاه القبائل، خاصة في المناطق التي شكلت بؤر التوتر الساخنة بسبب الحضور الباهت للمخزن بها، والتي كان أهلها دوما على استعداد للعصيان في أي وقت وحين، وقد تأرجح السلوك المخزني بين المهادنة والملاينة، خاصة في مناطق الحدود، وبين سياسة الحديد والنار التي ميزت العهد العزيمي الأول، وذلك بتوجيه محلات عسكرية¹⁸¹ للقضاء على الفتن وضرب المتمردين وسحقهم، -تمرد قبائل سوس نموذجاً لهذا السلوك، ثم فرض الذعائر¹⁸² وتولية عمال الجور عليهم وقد شهد تعيين الباشا عبد الكريم ولد أب محمد الشركي، عاملاً على قبيلة "هواره الحجر" على هذه السياسة¹⁸³.

لقد هدف المخزن من سياسته هذه على امتداد الحدود المغربية الجزائرية، المتمثلة في مهادنة السكان ورضى الجيران الفرنسيين، تجنباً لأية حوادث من شأنها أن تدخل المغرب في صراع مباشر مع فرنسا، وهو الأمر الذي لم يكن المخزن المغربي يمتلك له القدرة¹⁸⁴ في ظل

¹⁸¹- من القبائل التي تم تطويعها بالحديد والنار، قبائل الأعشاش والحوز وسوس (عادت لتمرد خلال العصر العزيمي الثاني) والريف خاصة قبيلة بقبوية، أنظر: رسالة من عمرو المغراوي إلى السلطان مؤرخة في 19 ربيع الأول 1316/4 غشت 1898/ و.خ.ح/ مج 1316/454.

¹⁸²- فرض المخزن الذعائر على القبائل كوسيلة منه لإضعافها حتى تكون عبءاً لباقي القبائل من جهة، ومن جهة ثانية لإحكام قبضته على القبائل، كنموذج لهذه الذعائر نورد رسالة السلطان إلى قواد مسفيوة، قائلا: " ... ووظفنا عليكم ذعيرة تطهيراً لصحيفتكم من دنس ما ارتكبتموه من الجرائم الملمات وقدرها مائة ألف ريال نصفها على وادي أهل كدجي ونصفها على وادي مترات على أن يؤدي أهل كل وادي خمسة وعشرين ألف ريال ناضراً ريبالاً ونصفها دفعاً ماشياً وغيره مقوماً حالاً معجلاً فإن أراد الله بكم خيراً فتمم في ذلك الواجب وإلا كان الأمر لزاماً وتحل بكم وببلادكم الشدائد والنواب فلتدفعوا ذلك على يد عمالكم في الحال وإلا وجهنا لكم السرياء والجيش والعساكر زيادة على من هناك من الرابطين عليكم النزال وترون بحول الله ما ترون من شديد النكال الذي يمحى أثركم ويخلي منكم هاتيك الجبال والسلام"، أنظر:

-رسالة السلطان إلى قواد مسفيوة مؤرخة في 24 ربيع الأول 1317/2 غشت 1899/ و.خ.ح/ مج 1317/492.

¹⁸³- رسالة من السلطان إلى محمد الشركي مؤرخة في 15 رمضان 1314/ 17 فبراير 1897/ ك.خ.ح/ رقم 199.

للمزيد من التوضيح أنظر،

- المودن عبد الرحمان، البوادي المغربية قبل الاستعمار: قبائل إيناون والمخزن بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1995، ص 274.

¹⁸⁴- كابريل فير، في صبحه السلطان، ترجمة عبد الرحيم حزل، مطبعة جذور للنشر، الرباط، 2003، ص 23.

وضعية مالية مزرية، على هذا الأساس عمل المخزن العزيمي على إصلاح العلاقة المضطربة التي كانت بين سكان وجدة وأعراب المهاية وأهل أنجاد والبصارة، تحقيقا لما ينبغي أن تكون عليه المنطقة من استقرار وهدوء وهو ما يستشف من رسالة الباشا إدريس بن يعيش إلى أبا حماد،¹⁸⁵، هذا السلوك نجده حاضرا لدى القائد المدني الكلاوي في تعامله مع أهل توات¹⁸⁶، خلال ترأسه حركة عسكرية بهدف استخلاص واجب الزكاة، على الرغم من جنوح أهل توات للفوضى، وعدم رضوخهم لسلطة المخزن الذي سلك معهم كما سلف الذكر سياسة اللين، بسبب حساسية موقعهم، خوفا من التجائم للحماية الفرنسية بالجزائر¹⁸⁷.

هذا الوضع وصل تأثيره إلى حدود الريف وتحديدًا قبيلة بني شيكر، نستشف ذلك من خلال رسالة وجهها كبراء الريف إلى السلطان، يشيرون عليه كيف ينبغي أن تكون عليه هذه القبيلة من ضبط وإحكام، واقتراح إعادتها (بني شيكر) إلى عامل وجدة عوض تركها مستقلة عنه خاصة وأن عاملها هو الذي تسبب في حدوث الفتنة على الحدود، وما جرى من اصطدام مع الفرنسيين¹⁸⁸، وقد ورد في الرسالة، "... أن بني شيكر ومن شاكلتهم من أهل القعدة يتحالفون على إيقاد نار الفتنة مع مزوجة وأن العامل المتولي علي بني شيكر هو أصل ذلك الفساد ومعدنه وأن الأليق بالحلة هو بقاؤها بمحلها ليلا يقع بين الفريقين ما يقع كما أن الأليق هو رجوع بني شيكر لولاية عامل الحدادة وأمر سيدنا اعزه الله بالإعلام..."¹⁸⁹.

هكذا عمل المخزن على استمالة القبائل من خلال إشراك الأعيان والشيوخ في حل المشاكل والنزاعات بين القبائل فيما بينها، الأمر الذي مكنه من بسط نفوذه، ويتجلى

¹⁸⁵ - رسالة من إدريس بن يعيش إلى أبا حماد مؤرخة في 20 جمادى الثانية 1312 / 19 نونبر 1894 / و.خ.ح/ مح 1312/10.

¹⁸⁶ - ابن الصغير، بريطانيا وإشكالية الإصلاح، م.س، ص 490.

¹⁸⁷ - رسالة من الكلاوي إلى المختار بن عبد الله مؤرخة في 26 ذي القعدة 1318 / 17 مارس 1901 / و.خ.ح/ مح 1318/511.

¹⁸⁸ - ابن الصغير، بريطانيا وإشكالية الإصلاح، م.س، ص 448.

¹⁸⁹ - رسالة من بو بكر بن الشريف و محمد بن البغدادي إلى السلطان مؤرخة في 3 رمضان 1318 / 25 دجنبر 1900 / و.خ.ح/مح 1318/514.

ذلك من خلال تعويض عمال قبيلة "آيتازداك" بأشياخ القبيلة وكبرائها¹⁹⁰.

2- الهيكلة الإدارية:

كان للاستبداد السياسي الذي مارسه الوصي الحاجب أبا حماد على محجوره عبد العزيز، آثار سلبية على شخصية السلطان، هذا الأخير وجد نفسه غرا لا خبرة له في تدبير شؤون الملك والرياسة، وعاجزا عن استيعاب المناورات الأجنبية ضد السيادة¹⁹¹، وكذا مواجهة الفتن والاضطرابات التي عمت البلاد وخصوصا ثورة جيلالي الزرهوني، التي شكلت تهديدا حقيقيا لشخصه¹⁹²، لكن الغريب فالأمر هو أنه ظل حبيس هيمنة حاجبه حتى بعد موته، لأن عبد العزيز لم يفعل شيئا أكثر من تنفيذ وصية مكتوبة تركها له أحمد بن موسى، حتى يتصرف وفقا لمضمونها بعد وفاته، وتكفي الإشارة إلى أن جميع الوزراء الجدد كانوا قبل تعيينهم، إما كتابا عملوا في ديوان أحمد بن موسى، أو كانوا تحت إمرته المباشرة في مهمة ما¹⁹³، هذا السلوك يتجلى بوضوح من خلال السياسة "اللامركزية" التي نهجها عبد العزيز، في محاولة منه السير على نهج خلفه، بهدف فرض حضوره في كل أنحاء البلاد، والضرب بيد من حديد على كل الحركات والانتفاضات الهادفة إلى خلخلت أمن واستقرار البلاد، حيث عمد إلى تفكيك القبائل الأكثر كثافة سكانية، وأيضا إعادة رسم حدود جديدة للجهات الكبرى، وهذا ما سوف نحاول أن نبرزه من خلال الوقوف على أربعة نماذج مثلت جهات بلاد.

2.1- منطقة الأطلس المتوسط:

شكلت المقدمة الغربية للأطلس المتوسط، نقطة غليان دائم، ومصدر إزعاج مستمر للمخزن خلال القرن التاسع عشر، وقد كانت هذه التمردات تزداد حدة خلال الفترات الحرجة التي مرت منها البلاد، بين كل من قبائل زمور الشلح وقبائل جروان وبني مطير¹⁹⁴.

¹⁹⁰ - للمزيد من التفاصيل، انظر:

- رسالة من السلطان إلى خدام أيتازداك مؤرخة في 2 صفر 1314 / 13 يوليو 1896 / و.خ.ح/ مح 1314/204.

¹⁹¹ - البوزيدي أحمد، درعة بين التنظيمات القبلية والحضور المخزني، م.س، ص 23.

¹⁹² - الحجوي، تقابيد، م.س، ص 27.

¹⁹³ - ابن الصغير، بریطانيا و إشكالية الإصلاح، م.س، ص 364.

¹⁹⁴ - رسالة من القائد الصديق بن مبارك الزيراوي إلى السلطان مؤرخة في جمادى الأولى 1315 / 28 شتبر 1891 /

و.خ.ح/ مح 1315/411.

- رسالة من القائد الفكك إلى المفضل غريط، مؤرخة في 12 رجب 1320 / 15 أكتوبر 1902 / و.خ.ح/ مح 1320/578.

ونظرا لأهمية هذه القبائل جغرافيا، حيث إنها تمتد على طول الطريق الرئيسي الرابط بين العواصم الكبرى؛ فاس، مكناس، الرباط، فإن المخزن كان مضطرا لوضع حد لحالة عدم الاستقرار هذه، والتي لم يكن بالإمكان السكوت عنها، لما تكلف المخزن من خسائر مالية مهمة كان في أمس الحاجة إليها، لذلك نالت قبائل جروان، وبني مطير، وزمور الشلح، نصيبها من التعديل الإداري، الذي اتبعه السلطان الحسن الأول (1873-1894)، وسار على نهجه الوزير أحمد بن موسى، إذ لوحظ من خلال الوثائق أن قبائل جروان وحدها على سبيل المثال لا الحصر، كان يحكمها سنة 1894م ستة قياد، لينتقل هذا العدد إلى عشرة قياد سنة 1322هـ / 1904م¹⁹⁵، لما عرفته هذه السنة من أحداث خطيرة بالمنطقة.

2.2- منطقة الشمال الشرقي (الريف):

لقد تم إعادة هيكلة الريف وتقسيمه إداريا ابتداء من سنة 1900م على إثر التمرد العام التي عرفته المنطقة جراء البعد عن المركز من جهة والاحتكاك بالحدود من جهة ثانية، وقد عمد المخزن إلى تقسيم منطقة الشمال لإضعاف شوكتها وكذا تيسير عملية التحكم فيها، وهكذا تم تقسيمها إلى عمالتين بعدما ظلت عمالة واحدة فترة من الزمن ليست بالهينة، لتصبح بذلك كل من وجدة وتازة عمالتين مستقلتين بذاتهما، الحد الطبيعي بينهما هو نهر ملوية، وألحق أهل أنجاد بعمالة وجدة وأهل الريف بعمالة تازة¹⁹⁶.

2.3- منطقة الشاوية:

لم تسلم جهة الشاوية بدورها من هذا التقسيم، على الرغم من قربها النسبي من المركز غير أن هذا الأمر لم يكن مقياسا على درجة الخضوع أو العصيان، خصوص وأن انتفاضة بعض قبائلها كانتفاضة الأعشاش¹⁹⁷، التي شكلت خطورة كبيرة على المخزن المغربي بعد وفاة السلطان الحسن الأول، لولا شدة حزم الوزير أحمد بن موسى الذي استطاع أن يلحق بهم الهزيمة¹⁹⁸، وأن يقلص من نفوذ بعض العمال الخارجين عن سلطته، ما إن تمكن المخزن من إخضاع هذه القبائل، حتى أقدم على تقسيمها إلى 28 قيادة، منها

¹⁹⁵- للمزيد من التفاصيل، أنظر:

ك.خ.ح، رقم 1322/731.

¹⁹⁶- رسالة بوزيان السعيدي إلى عرفة مؤرخة في 28 ربيع الثاني 1318/25 غشت 1902/ و.خ.ح/ مح 533 /1318.

¹⁹⁷- الخديمي علال، التدخل الأجنبي، م.س، ص 181.

¹⁹⁸- رسالة من القائد محمد بن يحيى الجديد إلى السلطان مؤرخة في 28 جمادى الأولى 1315/25 أكتوبر 1897، و.خ.ح، مح 1315 /359.

أما في الجنوب فإن سياسة التركيز وتوسيع الإيالات لفائدة فئة معينة من العمال، كانت لها آثارها السلبية التي ظهرت مع تقوية شوكتهم، فأصبحوا يشكلون مخزنا داخل المخزن، وهو ما دفع العديد منهم إلى استغلال هذه السلطة في جمع ثروات وممارسة نوع من الاستبداد على السكان، بل تعدى بهم الأمر إلى التطاول على ممثلي المخزن، مثال على ذلك ما حدث مع الموظفين المكلفين بميزان ديوانة الأعشار بمدينة أسفي، حيث تم القبض عليهم من طرف القائد عيسى بن عمر²⁰⁴.

لقد هدف المخزن دوما الى ترسيخ حضوره الدائم في قلب الأحداث، سواء من خلال الحضور السياسي كما رأينا، أو من خلال الحضور الاجتماعي كما سوف نرى، فما هي الملامح التي طبعت هذا الحضور على المستوى الاجتماعي؟.

ثانيا: دور المخزن الاجتماعي:

1-وقف تعسفات العمال:

كانت تعسفات العمال والقياد عموما تثير ردود فعل من طرف المخزن، وخاصة على عهد السلطان عبد العزيز، الذي كان ينتقد على القياد أفعالهم نظرا لما كان يترتب عنها من اضطرابات وفتن، وهذا ما تؤكد الرسالة السلطانية، ولأن "... ذلك هو سبب ما وقع من انعكاس الأمر على بعض العمال الذين مدت أيدي الفساد إلى ديارهم بانتهاك الحرمة وانتهاك الأموال...، فما زال العمال بخير ما تعاضدوا على الصلاح والنصيحة وتعانوا بسيرة حميدة ونية صحيحة، وتضافروا على سد الذرائع ودفع المضار وجلب المنافع..."²⁰⁵.

لقد كان المخزن يعمل على الحد من شطط القياد، بالتحذير والعزل، كما كان السلطان يرد في الغالب على المراسلات التي تصله عن تعسفات العمال، وفي هذا السياق نذكر كتابه إلى أمناء وأشياخ زناتة "...فقد وصل كتابكم بأن العامل مد يده في القبيلة بما شرحتموه من افتراض الأموال بلا قاعدة وصار بالبال فقد كتبنا له على ذلك..."²⁰⁶، غير أن القائد الزناتي، وكما هو الحال بالنسبة لمعظم العمال والقياد، بادر إلى نفي التهمة،

²⁰⁴- رسالة وجهها أهل أسفي إلى المخزن مؤرخة في فاتح ذي القعدة 17/1324 / 17 دجنبر 1906، و.خ.ح، مح 685 / 1324.

²⁰⁵- رسالة السلطان إلى عدد من القواد والعمال ومن بينهم عيسى بن عمر العبدى مؤرخة في ذي الحجة 1313 / ماي يونيو

1896 / ك.خ.ح/ رقم 422.

²⁰⁶- الرسالة مؤرخة في 7 جمادى الثانية 1313 / 25 نونبر 1896 / و.خ.ح/ مح 139 / 1313.

موضحا المبالغ التي حصل عليها من القبيلة، ومؤكدا بأنه وجهها لبيت المال ولم يبقى في ذمته شيء²⁰⁷.

وعلى نفس المنوال صار المحزن في التعامل مع قضايا تظلم القبائل من تعسفات رجالات السلطة، فقد بادر السلطان في السياق ذاته إلى الرد على تظلم قبيلة يزناسن وأهل أنجاد وشكاياتهم من تعسفات عامل وجدة بن يعيش سنة 1897م، موضحا بأن العامل المذكور ما عين عليهم إلا لأجل الرفق بالسكان، مشيرا إلى أنه أرسل من يتحقق في أسباب الشنآن الحاصل بين العامل ابن يعيش والقبائل المذكورة²⁰⁸، فالمخزن كان يستعمل أسلوب يمزج بين الاسترضاء والتهديد مع القواد بغية تحقيق نوع من التوازن²⁰⁹، ولم يكن المخزن يستجيب دائما لجميع الشكايات والتظلمات، وكان يعمل في كثير من الأحيان على الاستفادة المادية من نفوذ القواد داخل إيالاتهم، وتدعيم دورهم في تنفيذ السياسة المخزنية المركزية، وقد عمل أحمد بن موسى على تركيز هذه السياسة من خلال ممارساته مع العمال والقواد، ويتضح بالملاموس هذا السلوك من خلال رسالة جوابية موجهة من هذا الأخير إلى أولاد موسى وأولاد حساين من قبيلة مختار، الذين قاموا بالاستحمام بضريح المولى إدريس²¹⁰ هروبا من تعسفات القائد محمد المختار، " ... وصل كتابكم بما تطلبونه من مولانا المعتز بالله من إراحتكم من عاملكم الخديم محمد المختاري بتولية غيره عليكم لما بينتموه من الأحوال فقد علمنا ذلك وأثنينا لمولانا...، وقال أعزه الله لقد ظهر طغيانكم وتجبركم وسعيكم في إفساد الأرض... وعليه فإن أردتم السلامة لأنفسكم فصلحكم مع عاملكم فذاك فتكونون تجملتم على رأسكم وإلا فمصيبة أولادكم عليكم..."²¹¹.

من خلال تتبع فترة وصاية احمد بن موسى (1894-1900) يتضح على أن مثل هذه المواقف الصادرة منه تعتبر أمرا عاديا، كما تكشف لنا الوثائق على أنه بالقدر ما كان

²⁰⁷- للمزيد من التوضيح في هذا الشأن، أنظر:

- رسالة القائد بوشعيب بن العربي الزناتي إلى السلطان مؤرخة في 15 رمضان 1313 / 29 فبراير 1896 / و.خ.ح/مح 1313/135.

²⁰⁸- برحاب عكاشة، شمال المغرب الشرقي، م.س، ص 275.

²⁰⁹- المودن عبد الرحمان، البوادي المغربية، م.س، ص 271-269.

²¹⁰- لقد شكل الضريح في المجتمع المغربي مكانة دينية واجتماعية، لذلك كان الناس يلجئون إليه بهدف طلب الحماية والأمان، بخصوص هذا الموضوع ودلالة الأضرحة في المورث الشعبي المغربي، أنظر: التوفيق أحمد، المجتمع المغربي، م.س، ص 438-442.

²¹¹- رسالة مؤرخة في 8 ربيع الثاني 1318 / 5 غشت 1900 / و.خ.ح/ مح 1318/52.

لا يستجيب بكثرة لتظلمات القبائل، بقدر ما كان ضغطه يزداد على القياد لدفع ما حصلوا عليه من قبائلهم²¹²، وإذا كان هذا الضغط محدودا في بداية عهد عبد العزيز، نظرا لاضطراب أحوال القبائل، فإن الملاحظ أنه ابتداء من سنة 1896م تزايد الضغط الجبائي على سكان البوادي .

والجدير بالذكر أن المخزن كانت تصرفاته مع القياد تحكمها الازدواجية في الخطاب، من جهة كان همه كسب ود القبائل، ومن جهة ثانية حاجته للقياد لجمع المال، في ظل الظروف التي يمر منها، من خلال فقدانه لمصدره الأساسي لموارده المالية، والمتمثل في المراقبة الجمركية بالإضافة إلى إلزامية تسديده للغرامات المالية المفروضة عليه وكذا تزايد النفقات الداخلية، كل هذه العوامل مجتمعة جعلت من القياد الوسيط بين المخزن والقبائل.

خلاصة القول أن سياسة العمال والقياد الجبائية المبنية على التعسف والشطط، ساهمت بشكل كبير في تزايد الحيف الذي لحق العديد من القبائل خلال هذه الفترة، بل الأكثر من ذلك رسمت خريطة لنوعية العلاقة التي ربطت المخزن بالمجتمع القبلي خلال النصف الأول من القرن العشرين²¹³، وقد أشار الحجوي إلى هذه المعاناة التي لحقت السكان من جراء تزايد الكلف المخزنية إلى درجة أن "صار الرجل يبيع بيته ليأتي لقائده بما وجب عليه في الفريضة..."²¹⁴، وهذه الوضعية كانت لها انعكاسات على الحياة الاجتماعية، إذ كثر الفرار إلى القبائل المجاورة، وازداد السعي في الحصول على الحماية القنصلية ومخالطة الأجانب هروبا من كثرة الكلف²¹⁵.

²¹²- بخصوص سياسة أبا حماد مع العمال والقواد أنظر،
- السليمان محمد بن الأعرج، زبدة التاريخ وزهرة المشايخ، م.خ.و، ميكرو فيلم، رقم د 3756، ص 353.
- الخديمي علال، المجتمع الشاوي بين تأثيرات السلطة وتحولات المجال خلال القرن التاسع عشر، هسبريس تمودا، العدد 34، 1996، ص 7-27.
- الحجوي، تقابيد، م.س، ص 23.
- الصديقي عبد الرزاق، الرحامنة وعلاقتهم بالمخزن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، د.د.ع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 1988، ص 248-250.
²¹³- بخصوص هذا الموضوع، أنظر :
- برحاب عكاشة، شمال المغرب الشرقي، م.س.
- كنيخ العربي، لآثار التدخل الأجنبي على علاقة المخزن بالقبائل، م.س.
- الخديمي علال، المجتمع الشاوي، م.س.
- البوزيدي أحمد، درعة بين التنظيمات القبلية والحضور المخزني، م.س.
- الهراس المختار، القبيلة والسلطة: تطور البنيات الاجتماعية، م.س.
²¹⁴- الحجوي، تقابيد، م.س، ص 25.
²¹⁵- الخديمي علال، المجتمع الشاوي، م.س، ص 12.

حقيقة الأمر، يمكن القول بأن المبادرات الإصلاحية التي قام بها عبد العزيز، كانت تعكس وعيا بالأزمة المغربية ومسبباتها، وهذا يتجلى في الرغبة الجارحة التي أبدتها لوقف ممارسة العمال والقياد المتمثلة في التعسف والابتزاز باسم المخزن، من خلال إقراره لإصلاح جذري لنظام الجباية سمي بالترتيب، في محاولة للتخفيف على الرعية من عبء الضغط الجبائي، والقضاء على نظام الامتيازات الذي كانت تتمتع به فئات عريضة داخل المجتمع المغربي.

2- المخزن و سياسة استقرار السكان:

كان المخزن على دراية تامة بما تنطوي عليه مسألة فرار السكان من قبائلهم من عواقب وخيمة على استقرار الأوضاع بالقبائل وعلى ماليته، ولذلك كان يتدخل للحد من انتشار الظاهرة، وقد أولى الوزير أحمد بن موسى اهتماما كبيرا للمسألة، فأصدر أوامره إلى العمال والقياد بالتعاون فيما بينهم على ضبط تنقلات الأفراد والجماعات بين إيالاتهم²¹⁶.

وتؤكد وثائق مخزنية عديدة هذا التوجه الهادف إلى تضييق الخناق على الفارين من قبائلهم وإرغامهم على العودة إلى أراضيهم، فقد شهدت قبيلة الرحامنة مثلا خلال سنة 1896م، بعد تعرضها لاستنزاف جبائي كبير، فرار عدد من سكانها إلى القبائل المجاورة، وتبعاً لذلك أمر المخزن قياد هذه القبائل برد الفارين إلى قبائلهم، كما هو الشأن بالنسبة لقائد قبيلة أولاد أبي السباع، الذي أمر بإرجاع الفارين من الرحامنة إلى بلادهم، وبالفعل فقد قام القائد محمد السباعي بإلقاء القبض عليهم، واستأذن الوزير أحمد بن موسى في توجيههم إلى السلطان بمراكش، أو ردهم إلى قائدهم الحسن الرحماني²¹⁷، كما أمر عبد العزيز عمه عبد المالك بالضغط على أهل الوادي والرميلة من الرحامنة حتى يدخلوا وسط بلادهم لأداء ما عليهم²¹⁸.

لم تكن توجيهات السلطان تقتصر على قياد القبائل، بل كان يأمر عمال المدن ببذل قصارى الجهود من أجل منع الفارين من القبائل من التوجه إلى المناطق التي يقصدونها، فقد كتب السلطان عامل الرباط في هذا الموضوع، " فقد بلغ لشريف علمنا أن

²¹⁶- رسالة من احمد بن موسى باسم السلطان مؤرخة في 8 ذي الحجة 1313 / 21 مارس 1896 / ك.خ.ح، رقم 422، ص 25.

²¹⁷- رسالة القائد السباعي إلى أحمد بن موسى مؤرخة في 4 شعبان 1313 / 10 يناير 1986 / و.خ.ح/ مح 1313/333.

²¹⁸- رسالة عبد المالك إلى السلطان مؤرخة في 6 شعبان 1313 / 12 يناير 1896 / و.خ.ح / مح 1313/371.

البعض من ذكالة يفرون من بلادهم لزموهم وقبائل الغرب كي لا يعمهم ما يعم إخوانهم وعليه فأمرك أن تترصدهم ومن عثرت عليه منهم فألزمه الرجوع لبلاده...²¹⁹. هذا الموقف المخزني بخصوص ظاهرة الفرار التي أصبحت وباء العصر إن صح التعبير، لم تكن نابعة من رغبته، بل هي استجابة لتلك الشكايات المتكررة لقياد القبائل، وإلحاحهم على ضرورة إيجاد حل لهذه المعضلة تفاديا بطبيعة الحال إلى استفحاله بين جميع مكونات المجتمع المغربي من جهة، وضرورة أداء الفارين للكلف المخزنية كي لا يقع الإرهاق لبقية السكان المستقرين من جهة أخرى²²⁰.

في الواقع مهما يكن، فإن محاولة المخزن الهادفة إلى وضع حد لحالة عدم الاستقرار، كانت تصطدم ورغبة القيادة لتدعيم امتيازاتهم، وواقع سكان البوادي المتمثل في الفقر، وتزايد الضغط الأجنبي²²¹، في وقت كان المخزن في حاجة إلى المال.

3- المخزن وظاهرة الاستدانة:

طرحنا مسألة الاستدانة من التجار الأجانب واليهود مشاكل عديدة أمام المخزن، وقد أولى السلطان الحسن الأول اهتماما كبيرا لمحاربة هذه الظاهرة، وكان يلح على القيادة بتجنب تحمل الدين من الأجانب واليهود، وكانت أوامره صارمة في هذا المجال، نموذج الرسالة التي وجهها إلى قائد قبيلة المزامرة بالشاوية المعطي بن عبد الكبير، يقول فيها "... وكيف تخبر بتحمل الدين ولم تستحي لا من الله ومن خلقه ولا خشيت سطوة ولا راقبت عقوبة..."²²².

وهكذا كان السلطان الحسن الأول على دراية تامة بمخاطر الظاهرة، وبعواقبها الوخيمة على الرعية من جهة، وعلى مالية البلاد من جهة أخرى، ولذلك حاول علاج الداء قبل استفحاله، بتنبية القيادة إلى عواقب الاستدانة، وهو الأمر الذي توضحه رسالته إلى القائد العربي ولد أب محمد الشركي "... فقد تكرر ورود أهل الذمة على أعتابنا الشريفة شاكين باكين متضررين من قبيلة أشراكة و أولاد جامع بمالهم عليهم من الدين له خطر

²¹⁹- رسالة السلطان إلى أحمد السويسي عامل الرباط مؤرخة في 7 ذي الحجة 1313 / 20 ماي 1896 / ك.خ.ح.ر. 422، ص 52.

²²⁰- الرسالة مؤرخة في 4 ربيع الثاني 1317 / 12 غشت 1899 / و.خ.ح.ر. 1317 / 503.

²²¹- الخديمي علال، المجتمع الشاوي، م.س، ص 19_22.

²²²- الرسالة مؤرخة في 28 ربيع الأول 1301 / 27 يناير 1884، ك.خ.ح.ر. 348، ص 276.

وبال وامتناعهم عن الأداء والإنصاف ولو لزموا أداء ما بذمتهم لهم وباعوا كل ما يملكونه من الأصول والعقار والمتاع ما وفي بعض ما عليهم وهذا من سوء التدبير وعدم السياسة والتبذير"223.

ويبدو أن عواقب هذه الظاهرة، الناتجة عن التغلغل الأجنبي، كانت ولا شك من ضمن العوامل التي دفعت السلطان الحسن الأول إلى القيام بإصلاحه الجبائي المعروف بالترتيب سنة 1884_1885²²⁴ بحسب الأستاذة التوزاني نعيمة، فقد جاء في ظهير تعيين أمناء وأشياخ الزيادة تحديد للمهام العامة والخاصة التي كلفوا بها في القبيلة، ومن أهم المهام الخاصة، "المبالغة في البحث عن طمحت نفسه لتحمل الدين، ويخبرون به قبل أن يقع في مهواة الهلاك والحين، وأن يمنعوهم من تحمله، ومن المخالطة الناشئة من أجله، الفاسدة شرعا، ولاسيما إن كان صادف عن المعهود طبعاً، وإلقاء البال لمن يروم الدخول للحماية الخارجة عن القانون والشروط بين الأجناس المؤدية إلى الخرق والفساد، والوقوع في شرك الأجناس، فإن ذلك من أسباب الهلاك العاجل والخزي الآجل..."²²⁵.

لا شك أن الجهود التي بذلها الحسن الأول لم تكن لتضع حدا لانتشار هذا الداء، حيث تفاقم أمر الديون بعد وفاته سنة 1894، وتعددت شكايات التجار الأجانب واليهود إلى السلطان بهدف استخلاص ديونهم من رعيته، ولمواجهة هذا الأمر قرر عبد العزيز تكليف الحاج عبد السلام الورداني بمعالجة المسألة في القبائل المجاورة لمدينة مراكش، وكتب قيادها في هذا الشأن²²⁶، غير أن جهود المخزن الهادفة إلى إيجاد حلول للديون المترتبة في ذمم الرعايا المغاربة، ومحاربه لظاهرة الاستدانة من الأجانب واليهود، كانت تصطدم بإرادة هؤلاء في جعل هذه الديون مطية لهم لكسب أرباح على حساب سكان البوادي والمدن،

223 - رسالة السلطان إلى محمد الشركي مؤرخة في 29 رمضان 1301 / 15 يوليوز 1884، ك.خ.ح، رقم 121، ص 31.

224 - التوزاني نعيمة، الأمناء بالمغرب، م.س، ص 309_311.

225 - للمزيد من التفاصيل، أنظر:

- الخديمي علال، التدخل الأجنبي، م.س، ص 159_160.

- مكروفيلم، خ.ع، رقم 23، ص 115_116 (ظهير مؤرخ في 22 ذي القعدة 1301 / 13 شتنبر 1884).

226 - رسالة السلطان إلى قواد القبائل المجاورة لمراكش مؤرخة في 17 ذي الحجة 1313 / 30 ماي 1896، ك.خ.ح، رقم 422، ص 24.

ولذلك أكثر من الشكاية لدا السلطان، والاحتجاج على تأخير أداء الديون المستحقة مطالبين في الوقت نفسه بتدخل المخزن لتمكينهم من هذه الديون²²⁷.

و أمام كثرة شكايات التجار الأجانب واليهود، وتعسف القناصل والسفراء الأجانب، كان السلطان يضطر إلى الضغط على القياد لأداء هذه الديون من أموالهم، هذا الأمر دفع بالقياد إلى إجبار الرعية على أداء ما قاموا بدفعه من تلك الديون، ومهما يكن فإن السلطان لم يتوانى عن تنبيه العمال والقياد من خطورة هذه الظاهرة وعواقبها، خاصة وأن بعض ممثلي المخزن أنفسهم كانوا يتعاملون مع هؤلاء التجار، ويأخذون منهم ديونا يوقعون عليها باسم المخزن، وقد كتب عبد العزيز رسائل تحذيرية إلى جل عمال وقياد القبائل، نورد على سبيل المثال لا الحصر رسالة موجهة إلى قائد الرحامنة عبد الحميد الرحماني، والتي جاء فيها: " ... فقد بلغ إلى علمنا الشريف أن اليهود لا زالوا يتعاملون مع بعض العمال ويقبض اليهود منهم خطوط يدهم بتعمير ذمهم مختومة بطوابع المخزن التي بيدهم مع أن أوامرنا الشريفة و أوامر سيدنا المقدس بالله المنيفة قد تقدم إصدارها للعمال بمنع ذلك لأن سائر العمال والأشياخ ومن في معناهم مضروب على يدهم في مثل هذا وكل ما بيدهم هو بيت المال عمره الله ... "228.

وعموما فعواقب الاستدانة من التجار الأجانب كانت دائما ما تؤدي بصاحبها إلى الخروج عن سلطة المخزن، ليصبح خاضعا لسلطة الاستغلال الرأسمالي الأجنبي، الأمر الذي يقوده إلى التعلق بالحماية الأجنبية بغية التنصل من الكلف المخزنية، وفي نفس الآن هي نتيجة طبيعية لحالة غير طبيعية عاشها المجتمع المغربي في ظل ضغط مسلط من أعوان المخزن، بمقابل إجراءات أجنبية تنوعت بحسب حاجيات السكان.

4- تقديم المساعدات:

ساهمت سنوات الجفاف والقحط التي عرفتها البلاد خلال فترات زمنية متفرقة، في إفقار المجتمع المغربي، أمام هذا الوضع كان لازما على المخزن أن يتدخل لوضع حد لمعاناة

²²⁷ - رسالة السلطان إلى النائب محمد بن العربي الطريس مؤرخة في 6 ربيع الأول 1318 / 4 يونيو 1900، و.خ.نط. مح 51/18.

²²⁸ - الرسالة مؤرخة في 20 جمادى الثانية 1318 / 15 أكتوبر 1900، م.و.م، مح جمادى الثانية 1318.

فئة عريضة من المجتمع المغربي، و في هذا السياق يمكن أن نميز بين نوعين من المساعدات المخزنية.

1.4- المساعدات الدائمة:

حرص المخزن على جمع الفقراء والمعوزين في ملاجئ خاصة وتقديم لهم بعض الأطعمة، وفي هذا الإطار نورد رسالة الطريس، التي تعطي صورة لنوعية هذه المساعدات التي يقدمها المخزن للرعية، من خلال استجابته للأمر السلطاني القاضي بفتح محل الفقراء قرب دار المخزن الكبيرة بالقصبة " وتزويدهم بالحريرة كل صباح وخبزة لكل واحد كل مساء والصائر يكون من جانب المخزن والأحباس حتى لا يبقى الفقراء عرضة في الشوارع..."²²⁹.

وفي السياق ذاته نجد عبد العزيز يصدر ظهيرا شريفا لناظر أحباس ضريح الشيخ أبي الليوث بالدار البيضاء، ينص فيه على إيواء وكفالة الفقراء والمرضى، "... فقد بلغ علمنا الشريف أن المرضى من الأفاقين وأهل البلد الذين لا مأوى لهم يمرضون في الطرقات وينقلون لبيوت خارج المدينة ويقفون هناك حتى يموتوا جوعا وعطشا وقد اقتضى نظرنا جمعهم بالبيوت التي قرب ضريح الشيخ المذكور فنأمرك أن تجمعهم فيها وتخص الرجال بيوت منها والنساء بيوت منها كذلك بعد أن تصلح ما لا بد من إصلاحه منها وتزيد ما يتوقفون عليه من البيوت وتكون تدفع لكل مريض خبزتين أو ثمنهما في كل يوم ومن توفي منهم يقوم بتجهيزه ناظرا للموارث ومن حصلت له العافية يتوجه لحاله وتسقط مؤنته ومن زاد تزداد له مؤنة أمثاله وهكذا و قد أمرنا الخديم أحمد المديوني بالوقوف في ذلك وشد العضد حتى ينفذ شريف أمرنا على مقتضاه والسلام..."²³⁰.

وقد حظي فقراء والمعوزين بمدينة فاس بنفس الاهتمام والعناية²³¹، ولم يقتصر دور المخزن على هذا الحد، بل زيادة على هذه الأمور اتبع المخزن سياسة محمودة لكفالة الفقراء ومساعدتهم وذلك بتخصيص صلات مالية سنويا لفقراء ماستان فاس²³²، أما معوزا

²²⁹- رسالة من الطريس إلى السلطان مؤرخة في 5 ذي الحجة 1323 / 31 يناير 1906، ك.خ.ع، رقم 2720، ص 59.
²³⁰- ظهير سلطاني مؤرخ في 6 ذي القعدة 1318 / 25 فبراير 1901، و.خ.ح، مح 1318/528.
²³¹- رسالة مؤرخة في 22 محرم 1324 / 18 مارس 1906، و.خ.ح، مح 1324 / 685.
²³²- رسالة من ناظر أحباس الماستان بفاس إلى أبا حماد مؤرخة في 28 ربيع الأول 1315 / 27 غشت 1897، و.خ.ح، مح 1315/388.

تطوان فقد استفادوا من مشاهرة كانت تقدمها لهم أحباس المدينة²³³، وفي إطار رفع الظلم عن المجتمع المغربي من تظلمات القياد والعمال، وكذا محاولة تحسين وضعيتهم المعاشية أثناء الأزمات الكبرى، لم يستثني المخزن فئة السجناء من هذه العناية فقد سجلت لنا الوثائق²³⁴ المخزنية استجابة المخزن لتظلمات هذه الفئة.

2.4- المساعدات الوقتية:

حاول المخزن بإمكاناته المحدودة، رفع نوعا من الكلف عن الرعية بمشاركتها همومها ومعاناتها، إبان فترات الأزمات، وذلك بتقديم المساعدات المادية للمناطق الأكثر تضررا حيث غطت هذه المساعدات جهات الشمال والشرق والوسط والحوز، باعتبارها المناطق التي عرفت أزمات متنوعة وطويلة الأمد، والتي شكلت أكثر نقط سوادا من حيث الفقر والحاجة²³⁵، فهذه المساعدات لم تخص عصـر دون غيره، ففي سنة 1882م يذكر لويس أرنو "Arnaud louis" أن السلطان الحسن الأول وقف بنفسه على الأحوال التي كانت تمر بها منطقة آيت باعمران خلال سنتين متواليتين، كما وقف على مجموع المناطق السوسية المعروفة بخصب إنتاجها فوجد آثار الجذب بها وعمل على جلب الحبوب إليها لتموين سكانها على حساب بيت المال، وكلف النقل بحرا من مينائي البيضاء والجديدة مبلغا باهظا أدى بالسلطان إلى شراء باخرة نقل أطلق عليها اسم "الحسني"²³⁶، كما تسجل لنا الوثائق أن هذه المساعدات شملت جل سنوات العهد العزيمي، مما يوضح استمراريتها حتى بعد وفاة الوزير أحمد بن موسى ودخول المخزن في أزمة عامة.

خلاصة:

²³³- تقييد صائر أحباس الفقراء والمساكين بمدينة تطوان ومدخول أوقافها، المدة 1324-1329 / 1906-1912، ك.خ.ح، رقم 595.

²³⁴- بخصوص هذه الوثائق، انظر:

- رسالة من البلغيثي إلى أبا حماد مؤرخة في 21 رمضان 1315 / 16 فبراير 1898، و.خ.ح، مح 1315/386.

- رسالة من عامل الرباط محمد السويبي إلى أبا حماد مؤرخة في 19 شعبان 1316 / 2 يناير 1899، و.خ.ح، مح 1316/450.

- رسالة الوزير غريبط إلى الباشا سعيد بن فرجي مؤرخة في 19 جمادى الثانية 1320 / 23 شتنبر 1902، و.خ.ح، مح 1320/578.

- تقييد صائر أحباس الفقراء والمساكين بمدينة تطوان، ك.خ.ح، رقم 595.

²³⁵- اليزاز محمد، الأوبئة والمجاعات، م.س، ص 375.

²³⁶ _ Arnaud louis, Au temps des mehalla, Edit. Atlantides, Casablanca 1952, P61.

ألقت الظروف التاريخية الحرجة التي عاشها المغرب أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بظلالها على مكونات المجتمع المغربي، إذ تفاقمت مشاكله بسبب الأزمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي مست كل الميادين، وزاد من حدتها التكاليف الأجنبية وتدخلاته في السياسة الداخلية للبلاد.

أمام هذا الوضع المتأزم بدأت تطفو إلى الأفق مظاهر التحول الاجتماعي، فقد ضربت الأزمة كل الشرائح الاجتماعية، حيث أصبحت تعاني من مختلف أشكال الضغط والقهر، وقد بلغت درجة التضرر مدها، في وقت تصاعدت فيه موجة الكوارث الطبيعية (الجفاف، الجراد، الأوبئة...)، فإلى جانب قساوة الطبيعة، عانى السكان أيضا، من سياسة المخزن الجبائية، إذ شكلت الجبايات موردا هاما من موارد الدولة، حاولت من خلالها تعويض النقص الحاصل في مآليتها، ناهيك عن استغلال بعض رجالها لنفوذهم وتحقيق مصالحهم بتكديس الثروات، هذا في وقت كان الأجانب يترصدون أوضاع المخزن الداخلية، الذي عرف جهازه فسادا، حيث لم تكون مصلحة البلاد تجمع بين مكونات هذا الأخير، بل ساد جو من الحقد والحسد وصنع المكائد والدسائس، وخدمة المصالح الذاتية، عبر تفكيك البنية الاجتماعية للمجتمع المغربي، من خلال الاستيلاء على الأراضي، وتقديم مجموعة من الإغراءات لممثلي المخزن وشيوخ الزوايا لدخول تحت الحماية الأجنبية، بالمقابل كانت تملّي على المخزن جملة من الإصلاحات الواجب إدخالها للخروج من الأزمة، مع العلم أنها كانت على دراية تامة بالعجز المالي الذي تعرفه خزينة الدولة، مما جعل المخزن يضطر إلى زيادة الضغط الجبائي على القبائل لتحصيل أموال تساعد على تحقيق هذه الإصلاحات، لكن سياسة المخزن هذه، جعلت العديد من السكان يتعلقون بالحماية القنصلية، هروبا من أداء الواجبات والكلف المخزنية، فيما شكل تزايد الضغط الجبائي على القبائل، نقطة تحول في علاقتها مع المخزن، حيث عمت المغرب حركة تمرد وانتفاضات شملت جل مناطق البلاد، لم يستطع أي سلطان أن يخمد نيرانها. وأمام هذا الوضع من عدم الاستقرار، و تمرد القبائل ووقف أدائها للضرائب، التجأ المخزن للاقتراض من الدول الأوربية، أولا لسداد جزء من الغرامات المفروضة عليه من جهة، وكذا لتسليح الجيش وتجهيزه لمواجهة هذه الانتفاضات من جهة أخرى، ليصبح

خاضعا لتوجيهات المؤسسات البنكية الأوربية، التي كانت نتيجة تخطيط مسبق للامبريالية الأوربية لإحكام سيطرتها على المغرب.



الأزمة ونشأة المدونة المصدرية: رصيد الأرشيف الوطني التونسي في ضوء الأزمات

محمد البشير رازقي
باحث في تاريخ تونس

مقدمة:

تعتبر الأزمات ظاهرة أساسية في تواريخ كل المجتمعات، سواء كانت أزمات طبيعية أو أزمات سياسية أو اقتصادية واجتماعية²³⁷. وقد حاول الإنسان أن يتعايش مع هذه الأزمات، بل وجد عدة آليات لحماية نفسه ومجتمعه منها. من هنا تبرز أهمية مؤسسة الأرشيف في حفظ الأثر المادي للإنسان ولؤسساته التي أنشأها. من هذا المنطلق سوف ندرس علاقة الأزمات التي مرّ بها المجتمع التونسي خاصة في الفترة الحديثة ببلورة رصيد الأرشيف الوطني التونسي من خلال كتاب المنصف الفخفاخ " موجز الدفاتر الإدارية والجبائية بالأرشيف الوطني التونسي". فما هو دور الأزمات التي عايشها المجتمع التونسي في تكوين المدونة المصدرية للأرشيف الوطني التونسي؟

1- الأزمة ونشأة المدونة المصدرية:

يعد المؤرخ من أبرز الفاعلين في تشكيل الحيز المعرفي والمجالي للدولة، فهو يتفاعل مع توتراتها وأزماتها، ويساهم في بنائها بطرق وأدوات مختلفة²³⁸. بل ظلّ المؤرخ لفترة طويلة مرتبط بمؤسسة الدولة²³⁹، يساهم في تمييز مجالها حيناً، وحيناً آخر في بناء ذاكرة وهوية لهذا المجال. ويضلّ المؤرخ دائماً يحمل هاجس المدونة المصدرية، فالعمل التاريخي يركز على هذه المادة الحيوية²⁴⁰. وتصبح المدونة

²³⁷ Emmanuel Le Roy Ladurie, « La crise et l'historien », *Communication*, (1976), v :25, N°1, pp. 19-33

²³⁸ Alain Guery, « L'historien, la crise et l'État », *Annales. Histoire, Sciences Sociales* Année 1997 Volume 52 Numéro 2 . 233-256, in, persee.fr/doc/ahess_0395-2649_1997_num_52_2_279564

²³⁹ Abdelhamid HENIA, « Quand l'historiographie tunisienne se fait prisonnière de l'État », *Savoirs historiques au Maghreb. Constructions et usages*, Centre de Recherche en Anthropologie Sociale et Culturelle, 2006, p.97- 105

²⁴⁰ Vincent DUCLERT, « Les historiens et la crise des archives », *Revue d'histoire moderne et contemporaine*, 2001/5 (n°48-4bis), pp. 16- 43, in, cairn.info/revue-d-histoire-moderne-et-contemporaine-2001-5-page-16.htm

المصدرية هي لبّ الرحي في المغامرة البحثية، فالوثيقة تنزل الأفكار والفرضيات الى أرض الواقع وتساهم في شرعنتها أكاديمياً²⁴¹. فالمدونة المصدرية تمثل رهانا سياسيا واجتماعيا، من هنا يحاول الفاعل الاجتماعي أن يحافظ على ذاكرة معينة من خلال الأرشفة والحفظ. فالوثيقة المكتوبة والمحفوظة تساهم في صنع ذاكرة جماعية²⁴².

إن الدور الذي تلعبه المدونة التاريخية للباحث تشكل نواة عملية الإنتاج المعرفي. ومن هنا يستطيع الباحث تتبع آثار الأزمات والتوترات ليجد مدونته المصدرية المراد الاشتغال عليها. فالإدارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر مثلا أنتجت أرشيفا كبيرا²⁴³ ناتج بطريقة مباشرة عن أزمة. ولذلك فالأزمة يمكن أن تساهم في اندثار الوثيقة، ويمكن أيضا أن تساهم في نشأة الوثيقة. فالحرب العالمية الثانية أو حرب الجزائر أنتجت كمّا هائلا من الوثائق²⁴⁴. فالمدونات المصدرية تتنوع من مدونات مرئية مثل الأفلام السينمائية والوثائقية التي خلفها فترات الأزمة مثل الأفلام والأشرطة المنتجة فترة الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي، أو الأفلام التوثيقية التي تركتها لنا الحرب العالمية الثانية. نجد أيضا المنشورات الأكاديمية التي أنتجت في فترات تاريخية معينة تتميز بالأزمة مثل منشورات جمعية الجغرافية والاركيولوجيا في وهران "la Société de Géographie et d'Archéologie d'Oran (1878-1988)" والمجلة التونسية "Revue Tunisienne" أو اللوحات الفنية التي أنتجها الرحالة في الفترات الاستعمارية²⁴⁵.

فالكثافة التاريخية والأكاديمية إذا تتأثر بالتوترات والأزمات، فالأزمة يمكن أن تخفي مدونات مصدرية، أو توقّف أخرى. أيضا المؤرخ يتأثر بهذه الأزمات خاصة في فترة الحروب وبناء الذاكرات الجماعية في مرحلة بناء الدولة الوطنية، تصبح هنا الوثيقة دليلا لصدقية هذا التدافع في أوقات الأزمة²⁴⁶، من

²⁴¹ *Revue Genèses, Sciences sociales : Archives de la recherche, 2006/2 (n° 63)*

²⁴² Eric Ketelaar, « (Dé) Construire l'archive », Matériaux pour l'histoire de notre temps 2006/2 (N° 82), p. 65-70, in, cairn.info/revue-materiaux-pour-l-histoire-de-notre-temps-2006-2-page-65.htm

²⁴³ محمد غالم، « من أرشيف الإدارة الاستعمارية في الجزائر : الوثائق الفرنسية و الهجرة إلى الديار الإسلامية »، *Insaniyat / إنسانيات*, 27-38, 2000, | 12,

²⁴⁴ *Caroline Piketty, « Les archives de la période de l'Occupation : le cas des archives conservées aux Archives nationales », ARCHIVES « SECRÈTES », SECRETS D'ARCHIVES ?, Historiens et archivistes face aux archives sensibles, Sébastien Laurent (dir.), CNRS Éditions, 2003, p. 93- 103*

Thierry Sarmant, Les archives de la guerre d'Algérie : le secret entre violence et mémoire, ibid, p. 103- 110

²⁴⁵ Patrimoine(s) en question, *Insaniyat / إنسانيات*, 12 | 2000, in, insaniyat.revues.org/7887

²⁴⁶ L'écriture scientifique en temps de crise (Rwanda, Côte-d'Ivoire, Mali). Dossier coordonné par Florence Bernault ; textes et interventions de Pierre Boilley, Danielle De Lame, Mamadou

دون إغفال إمكانية مشاركة المؤرخ كفاعل اجتماعي في هذه الأزمة خاصة من وجهة نظر تاريخ الزمن الراهن، أو عندما يصبح التاريخ أداة لبلورة الذهنية من خلال الكتاب المدرسي مثلا²⁴⁷.

فالمناضل الجزائري الذي شارك في حرب التحرير وهي من أهم تجليات الأزمة، ثم أصبح مؤرخ بعد 1962، نجده ينتج أعمال أكاديمية استنادا الى وثائق ساهم هو نفسه في إنشاء بعضها وفي نحت سيرورتها من خلال ماضيه النضالي المحاط بالأزمة. فمؤرخين جزائريين مثل مولود قايد(1916-1998) ومحمد الشريف الساحلي(1917-2006) ومحفوظ قداش(1926-2006) شاركوا بفعالية في تظاهرات أزمة حرب التحرير الجزائرية²⁴⁸، وعالجت مؤلفاتهم فصولها التي عايشوها معتمدين على وثائق ساهموا هم أنفسهم في نسج خيوط بعضها. من هنا تصبح المدونة المصدرية المنتجة خلال الأزمة خاضعة لرهانات الفاعلين الاجتماعيين، وفي هذه الحالة تصبح خاضعة لآلة الدولة الوطنية الصاعدة الباحثة عن هوية حقيقية أو متخيّلة مُتخلّقة تشرعن بها وجودها في مرحلة ما بعد الاستعمار.

تصبح المدونة المصدرية المنتجة أو المُتخلّقة بعد أزمة المرحلة الاستعمارية من قبل الدولة الوطنية تكافح وتفند مدونات مصدرية أنتجت خلال الفترة الاستعمارية ساهم الاستعمار في بناءها استنادا أيضا الى إيديولوجية مخترعة، أو منتج علمي أكاديمي ساهم الاستعمار نفسه في بناءه مثل المجلة الافريقية "Revue Africain" في الجزائر، والمجلة التونسية "Revue Tunisienne" في تونس. هذه الاسطوغرافيا الاستعمارية المنشئة لمدوناتها المصدرية الخاصة والمساهمة في اختراع تاريخ جزائري ذو صبغة أكاديمية²⁴⁹، واجهت في ما بعد الاستعمار أسطوغرافيا "وطنية" لديها رهاناتها الخاصة والمفندة آليا لما تمّ انتاجه سابقا. من هنا نلاحظ أنّ الأزمة تساهم في انشاء مناخات ثقافية خالقة لمدونات مصدرية. من دون

Diouf, Jan Vansina, Claudine Vidal. », Afrique & histoire 2004/1 (vol. 2), p. 267-294, in, <http://www.cairn.info/revue-afrique-et-histoire-2004-1-page-267.htm>

²⁴⁷ Hsaan ramouan, « L'Etat national et sa mémoire : le paradigme histoire », in, *L'Algérie 50 ans après. Etat des savoirs en sciences sociales et humaines*, Centre de recherche en anthropologie sociale et culturelle, 2008, p. 149- 159

²⁴⁸ Fouad SOUFI, « Mahfoud Kaddache, un historien à l'Université d'Alger », in, *Ouanassa SIARI TENGOUR- Aissa KADRI, Générations engagées et mouvements nationaux. Le XXème siècle au Maghreb, Centre de recherche en anthropologie sociale et culturelle, 2012, p. 23- 30*

²⁴⁹ Fouad Soufi, « Histoire et mémoire : L'historiographie coloniale », *Insaniyat*, N 3, 1998, p. 53- 69

إغفال أن الأزمة، الحرب خاصّة، تساهم في بعض الأحيان في اندثار واختفاء وضياع مدونات مصدرية أخرى مهمّة²⁵⁰.

2- تأثير الأزمات في تونس على بناء رصيد الأرشيف الوطني التونسي:

تعتبر مؤسسة الأرشيف من أهم الآليات التي اعتمد عليها الانسان وخاصة الدولة لحفظ الذاكرة وحماية الوثائق المنتجة. في البلاد التونسية بدأت تضاريس الأرشيف وخاصة رصيد الدفاتر تتضح "أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر". وقد مأسس خير الدين الأرشيف التونسي. وجلّ الوثائق التي يتضمنها الآن الأرشيف الوطني التونسي هي وثائق الفترة العثمانية، الى جانب وثائق متعلقة بفترة الحماية الفرنسية²⁵¹.

تضاريس ومحتويات الأرشيف الوطني التونسي تشير الى ضعف الرصيد السابق عن القرن الثامن عشر. ويرجع ذلك إلى الأزمات الكثيرة التي عاشتها البلاد التونسية قبل سنة 1705 تاريخ تأسيس الدولة الحسينية. المنصف الفخفاخ أشار الى ذلك أي "دور التغيرات والتقلبات السياسية" في ضعف رصيد الفترة ما قبل القرن الثامن عشر "رغم ثراء تاريخ بلادنا منذ العصور البعيدة"²⁵².

نلاحظ من خلال الجدول (أنظر الملحق) أنّ رصيد الأرشيف الوطني التونسي تبلور نتيجة أزمات وتوترات مختلفة. فأزمة الاستعمار الفرنسي ساهمت في صياغة تنظيم واضح ومرتب لمحتويات الأرشيف. والمفارقة هنا أنّ الأزمة ساهمت في عقلة أرصدة الأرشيف. وعندما تتمعن في محتويات هذه المدونة نجد وثائق تشير مباشرة الى التوتر، خاصّة الوثائق المتعلقة بالأنشطة النضالية ضدّ المستعمر، مثل رصيد السلسلة Série A المحتوية على ملفّات "الفلاحة الثور" الذين قاوموا وناهضوا الفرنسي في البلاد التونسية. نسجّل هنا أنّ الأزمة والصراع ينتج وثائقه الخاصة. لذلك نجد بأن الأزمات الداخلية للبلاد التونسية، ولا سيما خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، قد ساهمت في تكوين الأرشيف الوطني التونسي من عدّة أوجه، وهي على النحو الآتي:

- فالأزمة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي عايشتها البلاد جعلتها "فقيرة حسنا ومعنى" حسب عبارة أحمد ابن أبي الضياف²⁵³. فتراكم ديون الدولة وثقل الجباية المسلّطة على الأهالي، وعدم

²⁵⁰ Philippe Artières, « Histoires d'archives », *Revue historique*, 2009/1 (n° 649), p. 119-126, in, cairn.info/revue-historique-2009-1-page-119.htm

²⁵¹ المنصف الفخفاخ، موجز الدفاتر الإدارية والجبائية بالأرشيف الوطني التونسي (تونس، منشورات الأرشيف الوطني التونسي، 1990)، 18

²⁵² المنصف الفخفاخ، 20

²⁵³ نور الدين الدقي، تونس من الإيالة الى الجمهورية (1814-2014)، المنشورات الجامعية بمنوبة، 2016، ص. 41

كفاءة عدد كبير من موظفي الدولة وتمدد نفوذ الأجانب جعل البلاد تعيش أزمة شاملة²⁵⁴. في هذا الإطار حاول الوزير خير الدين التونسي (1822-1890) صعبة مجموعة من "المستنيرين" أن يصلحوا من حال البلاد. من هنا تأسس الأرشيف التونسي كإدارة مستقلة مهمتها حفظ وثائق الدولة. فقد أجبر خير الدين مثلاً، كآلية من لآليات مركزة وثائق الدولة، العدول على تسليم دفاترهم الى أرشيف الدولة عند الانتهاء منهم لا أن يُحتفظ بهم عندهم. ولهذا فإنّ أقدم دفتر عدل يوجد الآن بالأرشيف الوطني التونسي يرجع الى سنة 1874-1875 ميلادي²⁵⁵. إذا الأزمة حثّت المصلحين على التفكير بفكر مؤسّساتي وساهمت في نحت تضاريس الأرشيف الوطني التونسي وتوفير كمّ هائل من الوثائق التاريخية كان يمكن أن تضيع.

-الأزمة التي عايشتها البلاد التونسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أجبرت السلطة على القيام بإصلاحات إدارية مهمّة. نجد الإصلاحات العسكرية مثل تأسيس مدرسة باردو الحربية في 1840، وتأسيس المدرسة الصادقية في 1875. أيضاً خاصة تأسيس المجالس مثل المجلس الأكبر والمجلس البلدي ومجلس الضبطية ومجلس الجنائيات والأحكام العرفية، المجلس الأكبر والمجلس المختلط. كلّ هذه المؤسّسات أنتجت أرشيفها الخاص والغني بالوثائق.²⁵⁶

-أزمة التغلغل الأوروبي أنتجت وثائقها أيضاً في الأرشيف الوطني التونسي مثل وثائق "الكومسيون المالي" وهو اللجنة المالية الدولية التي أنشأت في تونس في سبعينات القرن التاسع عشر بعد تفاقم الديون الأجنبية في البلاد²⁵⁷. ونجد تمظهر آخر للوجود الأجنبي ولتوغّله الاقتصادي من خلال احتكار تمرير خطوط "التلغراف" واحتكار استغلال عدد من المقاطع²⁵⁸.

-الأزمات البوائية والديمغرافية التي شهدتها البلاد التونسية تركت آثارها في الأرشيف الوطني التونسي من خلال وثائق "الكرنتينة"²⁵⁹.

²⁵⁴ نفس المصدر، ص. 41-66

²⁵⁵ Sami Bergaoui, « Distribution des notaires dans la régence de Tunis en 1874 », *Arabica*, T. 43, Fasc. 3 (Sep., 1996), pp. 422-436

²⁵⁶ من الدفتر 2688 الى 2957، المنصف الفخفاخ، ص. 342-472
²⁵⁷ من الدفتر 574 الى الدفتر 585، المنصف الفخفاخ، ص. 154 وما بعدها
²⁵⁸ من الدفتر 2290 الى الدفتر 2302، المنصف الفخفاخ، ص. 300-301
²⁵⁹ دفتر 2503، المنصف الفخفاخ، ص. 325

-الفساد السياسي وتفاقم الأعباء الجبائية على سكاّن البلاد التونسيّة ساهم في إشعال فتيل ثورة 1864. نجد عدد كبير من الدفاتر تهمّ بهذه الأزمة في الأرشيف التونسي²⁶⁰.

-التوتّرات الخارجية التي تعيشها الإيالة التونسية تركت آثارها في الأرشيف التونسي من خلال مثلا حرب القرم، أو وثائق القرصنة وأسرى القرصنة، أو دفاتر "وزارة الحرب"²⁶¹.

-خاتمة:

يمكن القول في الأخير بأنّ الأزمات والتوتّرات التي مرّت بالبلاد التونسيّة خلال العهد الحديث ساهمت بفعاليّة في بلورة رصيد الأرشيف الوطني التونسي. وفي كثير من الأحيان كانت الأزمة مولّدة للوثيقة، وإن كانت في أحيان أخرى تساهم في اندثار الوثيقة. من هنا يمكن للباحث أن يعتمد تتبّع نبض الأزمات والتوتّرات التي يمرّ بها المجتمع المراد دراسته لإيجاد مدوّنته المصدرية.

الجدول رقم 1: الرصيد الأرشيفي بالخرزينة العامة للحكومة التونسية²⁶².

عدد السلسلة أو نوعها	المحتوى
السلسلة التاريخية	تجمع ووثائق الدولة التي تعود الى ما قبل 1881، وقع تنظيمها في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين
الدفاتر الجبائية والإدارية	4069 دفتر يرجع أقدمها الى أواخر القرن السابع عشر ويصل تاريخها الى أواخر القرن التاسع عشر
Série A	تنظيم "القيادات" أو "الأعمال" والإدارة الجهويّة والمحليّة وتضمّ 2165 ملف حول "الفلّاقة" الثوّار وتخصّ فترة الحماية
Série B	أمناء المهن والحرف لتونس الحاضرة وبقية مدن البلاد (فترة الحماية)
Série C	جمعيّة الأوقاف- أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين
Série D	الأئمّة المدرّسين بالمساجد، الزوايا، الفرق الصوفيّة والشعائر الدينيّة (في عهد الحماية)
Série E	أرشيف قسم الدولة Section d'Etat وهو الجزء الأساسي ويخصّ كلّ الإدارات المركزيّة

²⁶⁰ من الدفتر 2527 الى الدفتر 2530، المنصف الفخفاخ، ص. 327

²⁶¹ حرب القرم: من الدفتر 2422 الى الدفتر 2432/ القرصنة: الدفتر 2504/ الأسرى: دفتر 2505/ دفاتر وزارة الحرب: من الدفتر 2958 الى الدفتر 3455

²⁶² المنصف الفخفاخ، ص. 20-21

الشؤون الدبلوماسية والقنصلية والعائلة الحسينية والأوسمة والمعاهدات والقنصليات (عهد الحماية)	Série F
مناشير في عهد الحماية	Série G

المراجع باللغة العربية:

-الدقي، نور الدين ، تونس من الإيالة الى الجمهورية (1814-2014)، المنشورات الجامعية بمتوبة، 2016
-الفخفاخ، المنصف ، موجز الدفاتر الإدارية والجبائية بالأرشيف الوطني التونسي، منشورات الأرشيف الوطني التونسي،
تونس 1990

-غال، محمد، «من أرشيف الإدارة الاستعمارية في الجزائر: الوثائق الفرنسية و الهجرة إلى الديار الإسلامية» *Insaniyat* ,
/إنسانيات. 2000, 27-38 | 12

المراجع باللغة الفرنسية:

-Bergaoui, Sami « Distribution des notaires dans la régence de Tunis en 1874 », *Arabica*, T. 43, Fasc. 3 (Sep., 1996), pp. 422-436

-DUCLERT, Vincent , « Les historiens et la crise des archives », *Revue d'histoire moderne et contemporaine*, 2001/5 (n°48-4bis), pp. 16- 43

- Guery, Alain, « L'historien, la crise et l'État », *Annales. Histoire, Sciences Sociales* Année 1997 Volume 52 Numéro 2 pp. 233-256

- HENIA, Abdelhamid « Quand l'historiographie tunisienne se fait prisonnière de l'État », *Savoirs historiques au Maghreb. Constructions et usages, Centre de Recherche en Anthropologie Sociale et Culturelle*, 2006, p.97- 105

-L'écriture scientifique en temps de crise (Rwanda, Côte-d'Ivoire, Mali). Dossier coordonné par Florence Bernault ; textes et interventions de Pierre Boilley, Danielle De Lame, Mamadou Diouf, Jan Vansina, Claudine Vidal. », *Afrique & histoire* 2004/1 (vol. 2), p. 267-294

-Ketelaar, Eric « (Dé) Construire l'archive », *Matériaux pour l'histoire de notre temps* 2006/2 (N° 82), p. 65- 70

- Patrimoine(s) en question, *Insaniyat / إنسانيات*, 12 | 2000

-Piketty, Caroline , « Les archives de la période de l'Occupation : le cas des archives conservées aux Archives nationales », *ARCHIVES « SECRÈTES » , SECRETS D'ARCHIVES ? , Historiens et archivistes face aux archives sensibles*, Sébastien Laurent (dir.), CNRS Éditions, 2003, p. 93- 103

-Ramouan, Hsaan « L'Etat national et sa mémoire : le paradigme histoire », in, *L'Algérie 50 ans après. Etat des savoirs en sciences sociales et humaines*, Centre de recherche en anthropologie sociale et culturelle, 2008, p. 149- 159

- Revue Genèses, Sciences sociales : Archives de la recherche*, 2006/2 (n° 63)
- *SOUFI, Fouad « Mahfoud Kaddache, un historien à l'Université d'Alger », in, Ouanassa SIARI TENGOUR- Aissa -KADRI, Générations engagées et mouvements nationaux. Le XXème siècle au Maghreb, Centre de recherche en anthropologie sociale et culturelle, 2012, p. 23- 30*
- Soufi, Fouad « Histoire et mémoire : L'historiographie coloniale », *Insaniyat*, N 3, 1998, p. 53- 69
- Artières, Philippe « Histoires d'archives », *Revue historique*, 2009/1 (n° 649), p. 119-126.

دور الإعلام الجديد في التأثير على العلاقات الاجتماعية في الوطن العربي

سماش سيد أحمد
باحث بجامعة زيان عاشور الجلفة

مقدمة:

إن ما جاءت به التكنولوجيا الحديثة للإعلام والاتصال قد فتح آفاقاً جديدة وأحدث تغييرات عميقة في مختلف جوانب الحياة الإنسانية، الثقافية، الفكرية والاجتماعية، كما أثر بشكل كبير على كافة أنماط الاتصال الإنساني، حيث فتح المجال واسعاً لتجسيد مفهوم القرية الكونية الذي أشار إليه مارشال ماكلوهان.

هذه التطورات الهائلة في مجال تكنولوجيا الاتصال غيرت العديد من المفاهيم والأدوار، فالإنترنت مثلاً لم تعد تؤدي دور نقل المعلومات وإرسالها فقط وإنما أصبح لها العديد من الانعكاسات الثقافية والاجتماعية.

مما لا شك فيه أن التطور الهائل في تكنولوجيا الاتصال الحديثة غير أنماط كثيرة في حياة الناس بعد مساهمة بلغت درجة هذه الأخيرة في العديد من القضايا التي ترتبط حتى بالعلاقات الإنسانية، فتكنولوجيا الأنترنت مثلاً متقدمة من التطور فبرز الجيل الثاني من الأنترنت الذي قلب الكثير من المفاهيم وأتاح عديد الخدمات من خلال وسائله المتنوعة التي يأتي في مقدمتها مواقع الشبكات الاجتماعية عبر الأنترنت؛ وهي ظاهرة برزت خلال السنوات الخمس الماضية و تطورت منذ بداية ظهورها إلى يومنا هذا لتصبح من أكثر المواقع استخداماً للإنترنت، حيث تحولت إلى بديل عن مختلف النشاطات التقليدية الماضية من خلال تفاعل عدد كبير جداً من المستخدمين، فأصبح الأشخاص يقضون وقتاً كبيراً مع آخرين يبادلونهم نفس الاهتمام و يشاركونهم نفس الفضاء ومع هذا التزايد الملموس في استخدام هذه المواقع من مختلف الفئات تعددت وتنوعت مقدمة بذلك عدداً هائلاً من الخدمات التي تتنوع من موقع إلى آخر فظهر موقع " ماي سبيس"، "فايسبوك"، "لينكدن"، "تويتر" وغيرها.. فما مصير العلاقات الاجتماعية التقليدية إثر استخدام مواقع الشبكات الاجتماعية؟

1-تعريف العادات:

مفردھا " عادة " وهو سلوك إنساني وظاهرة فردية خاصة لها ضوابطها، تتكون مع التعلم وتكرار، الاستجابات ، و تتكرر في مواقف متشابهة وجاء في المعجم العربي الأساسي " لاروس " العادة هي كل ما عاود فعله الشخص حتى صار يفعلہ من غير تفكير وتعرف أيضا على أنها فعل يتكرر على



وتيرة واحد¹. ويشير مفهوم العادة في علم النفس إلى سلوك منتظم يكتسبه الفرد بفضل التعلم، وتستثيره مواقف محددة، كما يكتسبه بتكراره، وذلك استجابة لهذه المواقف بقدر من الثبات النسبي والاستقرار مع سهولة في الأداء إلى حد الآلية².

2- الأنماط:

جاء في المعجم العربي الأساسي " لاروس " النمط جمعه أنماط ونماط وهي طريقة و أسلوب أو الصنف أو النوع أو الطراز من الشيء جماعة من الناس أمرهم واحد.

و يعرف علماء الاجتماع النمط بأنه جزء من السلوك التفاعلي يتكرر بشكل غالب كتناول أفراد الأسرة ثلاث أكالات في اليوم أو نوم الأطفال واستيقاظهم في وقت محدد، فالنمط هو مجموعة متناسقة من السلوك التفاعلي الذي يقوم به الفرد الذي يربط بين الأفراد ويجعلهم يتأثرون ببعضهم البعض أو يوجد بينهم اعتمادا متبادلا أو تأثيرا متبادلا³.

3- الإعلام الجديد:

يعرف lester الإعلام الجديد بشكل مختصر ويصفه بأنه High tech Dictionary قاموس التكنولوجيا الرفيعة ، باختصار اندماج الكمبيوتر وشبكات الكمبيوتر والوسائط المتعددة " وبحسب ليستر هو مجموعة تكنولوجيات الاتصال التي تولدت من التزاوج بين الكمبيوتر والوسائط التقليدية للإعلام، الطباعة والتصوير الفوتوغرافي والصوت والفيديو⁴

وتقوم فلسفة الإعلام الجديد على مبدأ استغلال بين الوسائل المحوسبة والشبكات الالكترونية وتكنولوجيا الاتصالات المتقدمة للوصول إلى أكبر عدد من الجمهور المهتم بالمعلومة التي تقدمها مؤسسة الإعلام بأقل تكلفة وأقصر طريقة، وأسرع نقل للمعلومة زمنيا⁵. ومن أهم وسائل الإعلام الجديد المدونات الإلكترونية، وغيرها الويكي wikis.. الشبكات الاجتماعية.

4- تعريف مواقع الشبكات الاجتماعية:

لقد شهدت مواقع الشبكات الاجتماعية على الانترنت انتشارا واسعا خلال السنوات الأخيرة وتعددت وتنوعت محاولة تقديم العديد من الخدمات وتحقيق مختلف الإشباع، ويأتي في مقدمتها موقع، Facebook، Twitter

1- عبد الكريم بابوري: (2005). عادات وأنماط مشاهدة طلبة سكيكدة للفضائيات العربية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأمير عبد

القادر الإسلامية، قسنطينة- الجزائر، ص15

2- ابراهيم مذكور: (1975). معجم العلوم الاجتماعية، مصر: الهيئة العامة للكتاب، ص381

3- باديس لونيس 2007-2008 جمهور الطلبة الجامعيين والانترنت: دراسة في استخدامات واشباعات طلبة جامعة منتوري- قسنطينة، مذكرة ماجستير غير منشورة، قسنطينة: جامعة الأمير عبد القادر، ص10

4- عباس مصطفى صادق. (2008). الإعلام الجديد المفاهيم والوسائل والتطبيقات، عمان: دار الشروق، ص

5- محمد عواد: (2011). مدخل إلى الإعلام الجديد، سلسلة مثقف في ساعة، نسخة إلكترونية تم استرجاعها بتاريخ 1 /02/ 2012 من

http://books.google.com.eg/books?id=QI-SxIoo-g=PP1&pg=PP1&redir_esc=y#v=onepage&q&f=false

، Myspace،LinkedIn ، وغيرها وتعدد تعريفات مواقع الشبكات الاجتماعية وتختلف من باحث إلى آخر حيث يعرفها **balas** بالاس ، على أنها برنامج يستخدم لبناء مجتمعات على شبكة الأنترنت اين يمكن للإفراد ان يتصلوا ببعضهم البعض لعديد من الأسباب المتنوعة"، وبالمثل يعرف بريس Preece و مالوني كريشمار Maloney - Krichmar مواقع الشبكات الاجتماعية على مكان يلتقي فيه الناس لأهداف محددة وهي موجهة من طرف سياسات تتضمن عدد من القواعد والمعايير التي يقترحها البرنامج.¹ أيضا تعرف على أنها مواقع الكترونية تسمح للأفراد بالتعريف بأنفسهم و المشاركة في شبكات اجتماعية من خلالها يقومون بإنشاء علاقات اجتماعية² وتتكون هذه الشبكات من مجموعة من الفاعلين الذين يتواصلون مع بعضهم ضمن علاقات محددة مثل صداقات، أعمال مشتركة أو تبادل معلومات وغيرها، وتتم المحافظة على وجود هذه الشبكات من خلال استمرار تفاعل الأعضاء فيما بينهم³ .

وكذلك عرفت الشبكات الاجتماعية بأنها" مجموعة من المواقع على شبكة الأنترنت، ظهرت مع الجيل الثاني للويب 2.0 تتيح التواصل بين الأفراد في بنية مجتمع افتراضي، يجمع بين أفرادها اهتمام مشترك أو شبه انتماء (بلد - مدرسة - جامعة - شركة... الخ .) يتم التواصل بينهم من خلال الرسائل، أو الاطلاع على الملفات ا لشخصية، ومعرفة أخبارهم ومعلومات التي يتيحونها للعرض، وهي وسيلة فعالة للتواصل الاجتماعي بين الأفراد، سواء كانوا أصدقاء نعرفهم في الواقع، أو أصدقاء نعرفهم من خلال السياقات الافتراضية" وحسب بويد وإليسون 2007مواقع الشبكات الاجتماعية هي خدمات عبر شبكة الأنترنت تسمح للأفراد ب⁴ :

-بناء شخصية عامة أو شبه عامة من خلال نظام محدد.

-توضيح لائحة خاصة بالمستخدمين الذين يشاركون الاتصال.

-عرض و اختيار قائمة الاتصالات الخاصة والقوائم الخاصة بآخرين خلال نفس النظام.

وفي الوقت الذي يصنع فيه المجتمع التكنولوجيا وفقا لاحتياجاته الاساسية و تلبية لرغبات مستخدمي هذه التكنولوجيا تعتبر هذه الأخيرة حساسة جدا نظرا لتأثيراتها المحتملة على الفرد و المجتمع. وأمام التطورات السريعة لتكنولوجيا الانترنت فُتِح المجال أمام العديد من المفاهيم والمصطلحات الجديدة التي يتقدمها مفهوم المجتمع الافتراضي الذي يحاكي المجتمع الطبيعي، في العلاقات الاجتماعية المتفاعلة في فضائه، و في الجماعات الاجتماعية وغيرها و

¹ -Wasinee Kittiwongvivat, Pimonpha Rakkannan. (2010):facebooking your dream, Master Thesis;p20

² -Xue Bai a and Oliver Yao. (2010): Facebook on campus: the use and friend formation in online social networks,College of Business and Economics, Lehigh University, [online] <http://ssrn.com/abstract=1535141> p02

³ -Amy Y. Chou, David C. Chou. (2009):Information System Characteristics and Social Network Software ,p336. [online] www.swdsi.org/swdsi2009/Papers/9K02.pdf

⁴ -Jamel alrshad. (2010):Towards a Taxonomy of Privacy Concerns of Online Social Network Sites Users, Master of Science Thesis , Stockholm, Sweden, .p11. [online] [kth.diva portal.org/smash/get/.../FULLTEXT01](http://kth.diva.portal.org/smash/get/.../FULLTEXT01)

بالرغم من الفوارق التي تظهر جلية بين الإثنين إلا أن المجتمع الافتراضي استطاع مع الجيل الثاني للانترنت وتطور مواقع الشبكات الاجتماعية أن يجعل الفرد يندمج فيه أكثر، فغالبا ما يدفع نمط الاتصال القائم على الاستثمار المكثف للانترنت الكثير من الأفراد إلى الإحساس بالانفلات من الواقع وإكراهاته المتعددة، بل الأمر قد يتجاوز ذلك ليخلق عند البعض نوعا من اليقين بإمكانية الإقامة في واقع مواز ومغالبة الواقع الفيزيائي¹

5- تعريف العلاقات الاجتماعية:

يشير مفهوم "العلاقة الاجتماعية" إلى ترتيب أو تنظيم ثابت للعناصر التي تظهر في الفعل الاجتماعي، فهي لا توجد بمعزل أو خارج الأفعال الاجتماعية، بل هي ترتيبات "متخيلة للفعل لا يمكن تصورها على النحو كأنماط الفعل الاجتماعي².

كما تعرف العلاقات الاجتماعية أيضا على أنها نتيجة التفاعل الاجتماعي - التأثير والتأثر - أو الأخذ والعطاء بين شخصين يشغلان موقعين اجتماعيين داخل الجماعة أو التنظيم أو المؤسسة الاجتماعية . ومن تعريفات العلاقات الاجتماعية أيضا: "هي الروابط و الآثار المتبادلة بين الأفراد في المجتمع ، و التي تنشأ نتيجة اجتماعهم و تبادل مشاعرهم و احتكاكهم ببعضهم البعض و من تفاعلهم في بوتقة المجتمع وتعتبر العلاقات الاجتماعية التي تتبلور بين الأفراد في مجتمع ما بناء على تفاعلهم مع بعضهم البعض - بغض النظر عن كونها علاقات إيجابية أو سلبية - من أهم ضرورات الحياة"

وقد ذهب ماكس فيبر إلى أن مصطلح "العلاقة الاجتماعية" يستخدم غالبا لكي يشير إلى الموقف الذي من خلاله يدخل شخصان أو أكثر في سلوك معين واضعا كل منهم في اعتباره سلوك الآخر، بحيث يتوجه سلوكه على هذا الأساس وعلى ذلك تشمل العلاقة الاجتماعية إمكانية تحديد سلوك الأفراد بطرق خاصة وتعتبر خاصية عامة للعلاقات الاجتماعية، فرما يختلف محتوى العلاقة على أساس الصراع أو العداوة أو التجاذب الجنسي أو الصداقة أو الشهرة أو الصيت أو تبادل السلع³.

6- العلاقات المفتوحة والعلاقات المغلقة:

يطرح ماكس فيبر نوعين من العلاقات الاجتماعية المفتوحة والمغلقة، ويقصد بالمفتوحة الارتباطات التي يقبل فيها الغرباء أو غير الأقارب أو غير المنتمين إلى طبقة اجتماعية معينة أو طائفة دينية خاصة أو نقابة حرفية وعادة تكون خالية من المنافع المادية المتبادلة والعاطفية الغرامية بل الود والاحترام المتبادل بينما عني بالثانية (العلاقات المغلقة) الارتباط المحصور بين الأقارب - دموية وقربانية أو المنتمين إلى طبقة اقتصادية أو العلاقة الموقعية التي تملك السلطة أو التي تربط بين أصحاب ذوي المصالح المتبادلة من أجل إشباع حاجات ورغبات مادية ومعنوية⁴.

¹-الصادق رابع، (2008) التكنولوجيا الاتصالية الحديثة وإشكالية الروابط الاجتماعية،الشارقة-الإمارات العربية المتحدة : شؤون اجتماعية العدد 99

²-السيد عبد العاطي، علم الاجتماع الحضري،الاسكندرية:دار المعرفة الجامعية.ص329

³-غريب محمد سيد أحمد:(2003). علم الاجتماع ودراسة المجتمع،الاسكندرية:دار المعرفة الجامعية،332

⁴-معن خليل : (1999) البناء الاجتماعي أنساقه ونظمه، ط3 ،الأردن:الشروق،ص77

لقد أثرت التكنولوجيات الحديثة للإعلام والاتصال في جميع المستويات وفي جميع مناحي الحياة وكافة الفضاءات التي يتحرك ض منها الفرد المعاصر، حيث أتاحت بذلك أنماط اتصالية جديدة، هذه التكنولوجيا أحدثت تأثيرات عميقة في بنية المجتمعات المعاصرة و على مستويات كثيرة كتغيير أنماط الاتصال السائدة ، تغيير في القيم ، في الدهنيات و النفسيات و في أساليب التربية والتعليم و ساهمت كذلك في خلق فضاءات اجتماعية جديدة لالتقاء الأفراد كمنتديات النقاش و المدونات على الرغم تباعد الفضاءات الجغرافية التي يتواجدون فيها ، اعادت تشكيل بنية المجتمع إذ عملت على تهديم عادات اجتماعية كانت سائدة كالتواصل الفيزيقي بين الأفراد فلم تعد الأسر أو الأصدقاء أو مختلف الجماعات تلتقي ببعضها البعض جسمانيا بل يكاد ينعدم هذا التواصل¹.

7- العلاقات الافتراضية داخل الشبكات الاجتماعية ومصير العلاقات الاجتماعية التقليدية في الوطن العربي:

أبدى الدارسون المهتمون باستخدامات تكنولوجيات الاتصال تخوفاتهم من إمكانية تأثر الروابط الاجتماعية بين الأفراد، بفعل ظهور هذه الطرق والقنوات الحديثة للاتصال، التي قلبت التواصل في المجتمع رأسا على عقب بعد أن جعلت الحضور الفيزيائي أو الحضور الاجتماعي و التقارب الجغرافي، التوافق الزمني، والتماثل الثقافي، أمورا لا يشترط توفرها لإقامة التواصل بين الأفراد . حيث أصبح الأفراد داخل البيئة الاتصالية الجديدة يتمتعون بقدرة على خلق فضاءات اتصالية افتراضية يلتقون فيها ظرفيا كأسلوب تعبيرى جديد يمكنهم من الاتصال بالآخرين² . ومع تزايد الاعتماد على هذه الفضاءات الافتراضية بدأت تتجلى العديد من التساؤلات حول ما إذا كان انتشار العلاقات الافتراضية الناتجة عن استخدام الأنترنت يؤثر سلبا على العلاقات الاجتماعية التقليدية في المستقبل أو يساهم في دعمها وتقوية روابطه.

7-1الاتجاه الأول :الاتصال عبر الأنترنت و مواقع الشبكات الاجتماعية يدعم العلاقات الاجتماعية داخل

الوطن العربي :

كان بار Barry قد كتب بأن المجتمع الافتراضي كشبكة من العلاقات الشخصية تقدم المؤانسة والدعم، المعلومات، الشعور بالانتماء والهوية الاجتماعية، ويقول Gulia وWellman بأن الكمبيوتر يدعم الشبكات الاجتماعية من خلال مجموعة متنوعة من الخدمات مثل الإيميل، الدردشة،.. وغيرها، و لقد استطاعت المجتمعات الافتراضية من خلال شبكات التواصل الاجتماعية أن توفر العديد من الفرص للأشخاص لمشاركة حياتهم الخاصة مع آخرين في نموذج آخر³.

¹ -يامين بودهان. (2012). تحولات الإعلام المعاصر، عمان: دار اليازوري، ص12

² -يامين بودهان : (2010). المواقع التواصلية لشبكة الأنترنت نحو ميلاد بيئة اتصالية جديدة، بحث مقدم لملتقى وطني حول تأثيرات وسائل الإعلام الجديدة على الأفراد والمجتمعات، جامعة سطيف 19/18 أكتوبر، 2010

³ -Anonymous (2011) : Do-virtual-communities-and-social-networks-enhance-andor-destroy-peoples'-relationships-in-reality, [online] <http://networkconference.netstudies.org/2011/05/do-virtual-communitiesand-social-networks-enhance-andor-destroy-peoples%E2%80%99relationships-in-reality/>

ولقد أشار العديد من الأشخاص الذين يعتبرون بأن الأنترنت تمثل قوة إيجابية في علاقاتهم كلما سمحت لهم بإنشاء العديد من العلاقات سواء كانت قوية أو ضعيفة، حيث لم يعد البعد الجغرافي يمثل عائقاً أمام الحفاظ على هذه العلاقات وتقويتها¹. ويؤكد العديد ممن يدعمون هذا الاتجاه إلى أن الشبكات الاجتماعية عبر الأنترنت والتواصل من خلالها يساهم في دعم العلاقات الاجتماعية والحفاظ عليها ومثال ذلك الدور الذي يلعبه موقع "الفيسبوك" اليوم في حياة الأشخاص حيث يرى العديد من مستخدميهم بأن الموقع ساعدهم في الحفاظ على علاقاتهم الاجتماعية القديمة و القائمة و هو الهدف منذ بداية إنشائه، حيث سمحت هذه المواقع مثل "فيسبوك" و"تويتر" للمستخدمين أن يبقوا على اتصال مع الأصدقاء في أوقات فراغهم حتى في الوقت الذي يجلس فيه في المكتب أو ينتظر القطار ..² وتبين الدراسات بأن فايسبوك "مؤخراً أصبح يضم أكثر من 47000 كلية، مدارس، عمال، شبكات إقليمية وغيرها، وتساهم اليوم مواقع الشبكات الاجتماعية من خلال مساهمتها في العمليات التعليمية في جمع العديد من ذوي الاهتمامات المشتركة . وتجدر الإشارة بأن زوكر بيرغ من خلال تصميمه لموقع "الفيسبوك" يركز على إنتاج المنفعة الاجتماعية التي تربط الناس ببعضهم البعض في جميع أنحاء العالم وليس تركيزه على جعل الموقع يبدو جذاباً وحسب³.

و يرى John.Thompson أن التطور الحاصل في مجال تكنولوجيايات الاتصال لم يبلغ التفاعل المباشر وجها لوجه وإنما جاء ليكمله ويتمه⁴.

7-2الاتجاه الثاني:الاتصال عبر الانترنت و الشبكات الاجتماعية يؤثر سلبا على العلاقات الاجتماعية داخل الوطن العربي:

يشير إبراهيم إسماعيل⁵ إلى أن الانترنت لها دور كبير في عزل الأفراد اجتماعياً وتفكيك العلاقات بين الأفراد في المجتمع فالأفراد أصبحوا يقضون وقتاً طويلاً في التعامل مع الكمبيوتر و الانترنت بطريقة لافته، بما ينطوي عليه ذلك في كثير من الأحيان من حاجة إلى العزلة عن الآخرين خلال فترة الاستخدام الأمر الذي يؤدي بدوره إلى إشاعة حالة من العزلة ألاجتماعية وبالتالي إيجاد نوع من التفكك ألاجتماعي خاصة في ظل انتشار انماط جديدة من القيم و السلوكيات المستحدثة في المجتمع العربي كله . و يشير المختصون في هذا الصدد، إلى ما بات يطلق عليه انطوائية الكمبيوتر Computer Phyliac وتوجد هذه الحالة عندما يستمر الشخص في الجلوس أمام الحاسوب ساعات

¹ -Janna Quitney Anderson, Lee Rainie :op cit

² -1 Angelo Antoci and al.(2010) See you on Facebook: the effect of social networking on human interaction,p02

³ - Ibid

⁴ -John B.Thompson , (2000) : transformation de la visibilité, réseaux n. 100,p.193

⁵-إبراهيم إسماعيل عبده:(2009)العلاقات الإجتماعية عبر الانترنت دراسة في الفرص الكامنة والمخاطر المستترة،مركز أسبار للبحوث http://www.asbar.com/ar/contents.aspx?c من /03/ 779 والدراسات والإعلام،تم استرجاعها بتاريخ 2011

http://www.asbar.com/ar/contents.aspx?c من /03/ 779 والدراسات والإعلام،تم استرجاعها بتاريخ 2011

طويلة كل يوم بشكل يشبه مدمني القمار، طبعاً مع استثناء الأشخاص الذين يستدعي عملهم ذلك، وقد توجد هذه الحال لدى الأفراد الانعزاليين ذوي الشخصيات الإنطوائية أو الأشخاص الذين يرغبون في الهروب من ظروفهم و مشكلاتهم الحياتية فيلجأون إلى الحاسوب ليفرغوا فيه طاقتهم وهمومهم، فضلاً عن الإجهاد والتوتر النفسي الذي ينتج من استخدام الحاسوب لفترات طويلة.

يرى williams وآخرون أن استخدام الأنترنت قد يتدخل في الكثير من الأحيان في الاتصال داخل المنزل، وخلق ما يعرف بـ " ما بعد الأسرة"، عندما يصبح أعضاء الأسرة يتفاعلون مع الكمبيوتر بدلا من تفاعلهم مع بعضهم البعض¹، هو وجه من تأثير السليبي على التفاعل داخل الأسرة. حيث يرى البعض حسب بأن الوقت يسرق الكثير من الوقت الذي يفترض أنه مخصص للاتصال وجها لوجه والأنترنت في العادة تعزز علاقات غير قوية، هذا إلى جانب أن الدخول إلى الأنترنت يعرض المعلومات الشخصية إلى الخطر .

الخاتمة:

لا يختلف اثنان في أن الرغبة في التواصل مع الغير هي نزعة متأصلة لدى الإنسان ومهما قيل عن حوار الإنسان والآلة والإبحار في محيطات الإنترنت، فليس هناك ما هو أروع للإنسان من أن يقيم حوارا مع إنسان غيره على الطرف الآخر يشاركه اهتماماته وهمومه ويتبادل معه معارفه وخبراته، وأمام انتشار الاستخدام المفرط لمواقع الشبكات الاجتماعية على الأنترنت أصبح الأفراد يميلون إلى قضاء وقتهم في عالم يوازي عالمهم الفيزيائي الأمر الذي دفعهم إلى الانقطاع عن العديد من النشاطات الاجتماعية والتقليل من العلاقات الاجتماعية التقليدية والاستئناس أكثر بنظريتها الافتراضية. وفي هذا الصدد لم يتردد الكثير من علماء النفس في تقديم تشخيص سوداوي غالبا خصوصا في الوطن العربي و الجزائر حيث أصبحت الهوية و العادات و التقاليد على المحك من جهة و عناصر الاجتهاد في العلم و العمل داخل هذه الأوطان ناذرة عن لم نقل منعدمة.

¹ -Angelo Antoci and al.(2010) See you on Facebook: the effect of social networking on human interaction,p06

Conservation intégrée du patrimoine archéologique et bâti au Maroc Réflexions autour de quelques approches managériales

Ahmed Oumouss
Chercheur et professionnel du patrimoine culturel
PNPR. Ministère de la Culture

Riche par son patrimoine archéologique et bâti, le Maroc est confronté aujourd'hui à un réel défi de la préservation et de la valorisation de cette ressource non renouvelable. Des menaces, d'ordres naturels et anthropiques, mais aussi inhérents aux modes de gestion adoptés en la matière, deviennent de plus en plus pressantes. Malgré tous les dispositifs institutionnels et réglementaires mis en place, l'état des lieux de l'héritage patrimonial national révèle une situation de vulnérabilité qui risque de nous faire perdre, de manière irréversible, une part importante de notre identité et de nos ressources. La sauvegarde de ce patrimoine culturel, est, en effet, un problème commun à l'ensemble des acteurs de la société ; dans la mesure où il contribue à la compréhension du passé, à l'enrichissement du présent et à la préparation de l'avenir. Comme le précise Pierre de Maret : protéger, préserver et valoriser le patrimoine culturel c'est « réintégrer le passé dans le présent et ce faisant jeter les bases plus solides pour les développements futurs »¹.

Face à cette situation, il est devenu urgent de penser une stratégie de valorisation du patrimoine culturel en général, qui soit en mesure de remédier aux lacunes et aux faiblesses de la gestion actuelle. Les dimensions de toute volonté de refondation et de mise en œuvre de cette stratégie devraient prendre en effet de multiples aspects :

- ✓ Aspect institutionnel (organes et acteurs potentiels censés contribuer à la préservation de l'héritage patrimonial: Etat, collectivités locales, secteurs privé et associatif, populations...) ;

¹ De Maret Pierre: « Recherches archéologiques, protection des sites et création d'emplois. Perspectives pour l'Afrique Centrale ». Culture et Développement en Afrique, Actes de la conférence internationale, organisée au siège de la Banque mondiale, à Washington 2-3 avril 1992, p 426.

- ✓ Aspect réglementaire et juridique (normes, lois et procédures mises en place pour assurer une meilleure protection et intégration du patrimoine dans les projets de développement.) ;
- ✓ Aspect technique (mécanismes et instruments de suivi des processus de gestion et de promotion du patrimoine).

Dans le présent article, nous nous limitons aux questions d'ordre managérial, relatives beaucoup plus aux mécanismes de suivi et de gestion, susceptibles de mener à bien toute politique de mise en valeur du patrimoine culturel matériel immobilier. Lesquelles questions restent marginalisées dans les débats et par les projets de réformes de la chose publique au Maroc. Parmi les mécanismes incontournables que nous proposons présenter dans cette réflexion figurent : la maîtrise du processus de valorisation, la planification préventive, la gestion intégrée et l'introduction des nouvelles techniques de valorisation (économie et marketing du patrimoine- technologies de l'information et de la communication, entre autres).

1- La valorisation du patrimoine archéologique et bâti : un processus à maîtriser

La question de conservation et de mise en valeur du patrimoine culturel matériel en général et du patrimoine archéologique et bâti en particulier revient, au premier abord, aux modes de management ou de gestion. Outre le volet technique, la gestion intégrée et performante prend en compte d'autres paramètres d'ordre organisationnel. L'allusion ici est faite aux instruments permettant la maîtrise de nombreuses actions enchaînées, qui comprennent plusieurs étapes et qui complètent les unes les autres : le dépouillement, la fouille, l'identification, l'inventaire, la documentation, la conservation, la restauration, la réhabilitation, l'éducation, la sensibilisation et enfin la promotion et la transmission.

En effet, le processus de valorisation du patrimoine archéologique et bâti se présente comme une «chaîne opératoire», allant de la prospection, de l'inventaire, de la carte archéologique, du contrôle des projets d'aménagement territorial et des grands travaux, à l'exposition des résultats des recherches et à la promotion des biens, à travers les techniques d'interprétation et d'intégration dans la dynamique économique et sociale¹.

Tout processus incomplet, ce qui est le cas actuellement des politiques publiques marocaines, mettra en cause le projet de valorisation de ce patrimoine et entrainera un cercle vertueux d'actions répétitives; ce qui suppose un effort d'investissement qui n'aura peut-être pas de rendement, aussi bien sur le bien patrimonial lui-même que sur le territoire ou l'espace dans lequel il s'intègre. De ce

¹ A cela s'ajoutent des activités bien spécifiques et des enquêtes diverses, comme : les sondages exploratoires, la fouille préventive ou systématique, l'examen des structures bâties et des artefacts, suivis de l'élaboration de la documentation recueillie, par les analyses en laboratoire des objets exhumés et la conservation-restauration, et enfin par des études diffusées par le biais de publications scientifiques, voire des études qui permettront en outre de restituer sous une autre forme, notamment par le biais d'expositions destinées à un public élargi, les connaissances acquises.

fait, il est nécessaire d'élaborer des mécanismes de suivi du processus, grâce notamment aux instruments de planification et de projection, mais aussi grâce à la mise en place d'organes et de services compétents. Parmi les outils de gestion prospective, pour ne citer qu'un exemple, le « plan de gestion » qui pourrait assurer une sorte de « cadre logique » aux activités liées à la reconnaissance et à la réhabilitation du patrimoine archéologique et bâti.)

En effet, il est de toute évidence que les potentialités du patrimoine archéologique, architectural et urbanistique posent le plus de problèmes quant à leur conservation et à la maîtrise de leur gestion. Leur amplitude et leur présence matérielle dans le vécu supposent leur confrontation quotidienne aux aléas et aux dangers d'origines naturelles ou humaines diverses. Les impératifs de leur sauvegarde et de leur réhabilitation appellent à être gérées de la manière la plus adéquate. Ainsi, la durabilité de la sauvegarde et de la réhabilitation doit être assurée par les mécanismes les plus appropriées.

D'après B.M. Feilden et J. Jokilehto¹, la gestion des sites archéologiques et historiques comprend des éléments qui sont aussi valables pour tout site ou bien culturel, bien qu'il ne soit pas inscrit sur la liste du patrimoine mondiale. Il s'agit de :

- ✓ Faire comprendre les valeurs culturelles à préserver sur le site et élaborer des directives spécifiques en fonction de la définition de son intérêt;
- ✓ Etablir un inventaire complet de toutes les ressources culturelles du site ;
- ✓ Organiser des inspections régulières, conduites par des professionnels qualifiés et expérimentés;
- ✓ Elaborer un plan stratégique de maintenance, débouchant sur la formulation de projets sur divers éléments qui s'inscrivent dans un programme annuel de travail en fonction de leur priorité ;
- ✓ Respecter, dans toute intervention, les principes d'éthique de la conservation, les recommandations de l'UNESCO et les directives contenues dans les chartes spécifiques, relatives à la préservation du patrimoine, en l'occurrence celles du Conseil International des Monuments et des Sites Historiques (ICOMOS)².

Par ailleurs, une gestion performante des sites du patrimoine archéologique passe par un cycle programmé de mesures, visant à long terme à protéger les biens, à les conserver et à les mettre en valeur pour les générations présentes et futures.

2- La planification préventive

¹ Feilden Bernard M. & Jukilehto Jukka, Guide de gestion des sites du patrimoine culturel mondial, ICCROM, 1996, p.1-2.

² A cet égard, on peut consulter les sites internet de l'UNESCO et de l'ICOMOS (www.unesco.org et www.icomos.org)

La planification est une démarche de plus en plus réclamée par l'UNESCO comme par d'autres groupements d'experts du patrimoine culturel matériel¹. Elle consiste à mettre au point un mécanisme de gestion durable et propre à chaque site, en termes d'objectifs, d'actions de conservation, de budgétisation, de recherches et de documentation. Elle doit être une activité pluridisciplinaire, menée par l'apport de spécialistes dans les matières relatives à la signification du site ou du monument². Elle passe par l'élaboration d'un « Plan de gestion », échelonné sur le court terme (annuel, dit plan de travail), le moyen terme (moins de 5 ans) et le long terme (de 5 à 30 ans et plus).

La préparation d'un plan de gestion d'un site implique l'examen de tous ses éléments (un élément constitue l'unité identifiable d'un site). Certains sites peuvent se composer d'un seul élément, alors que d'autres peuvent en associer plusieurs. Force est de dire que le plus simple des plans de gestion est d'une complexité qui justifie, d'une part, le recours à des compétences diverses (archéologues, historiens, conservateurs, ingénieurs, architectes, urbanistes, géographes...), d'autre part, la recherche d'une acceptation locale, par la consultation de la population et le déclenchement d'un processus de patrimonialisation.

Le plan de gestion doit tenir compte également des plans nationaux et locaux, des prévisions de l'évolution démographique, des facteurs économiques, des projections relatives à l'urbanisation et à l'implantation des différentes infrastructures.

Certes, la mise en œuvre du plan de gestion dépend de la capacité à assimiler les termes des Conventions et des Orientations internationales, mais aussi de la législation interne. Il s'agit, en outre, de moduler et mettre à jour le système normatif, d'impliquer et de développer les compétences nationales et locales en matière de sauvegarde et de gestion, et enfin, de mobiliser les fonds nécessaires (investissement public, Partenariat Public Privé, la coopération internationale...). A ce titre, les Orientations internationales restent toujours un outil de référence pour la mise en marche des mécanismes de préservation des biens du patrimoine archéologique, vu sa mise à jour permanente et sa capacité d'évoluer par rapport au contexte national et mondial.

Par ailleurs, le suivi est une activité de mesure et d'évaluation du changement. En matière de patrimoine archéologique, à l'instar des autres domaines, on fait appel aux techniques du monitoring, afin d'obtenir des renseignements qui permettent d'orienter les décisions des gestionnaires. Souvent, les actions de monitoring sont influencées par la fascination qu'exercent certains systèmes de surveillance et de maîtrise de l'information, à l'image du « Système d'Information Géographique » (SIG). D'où, l'importance de choisir des outils et des indicateurs qui, dans le cadre des ressources disponibles et des contraintes existantes, correspondent le mieux au but de l'activité de suivi, tel qu'il

¹ ICCROM, ICOMOS, ICOM, OVPM, TARA, entre autres.

² Feilden Bernard M. & Jukilehto Jukka, Guide de gestion des sites du patrimoine culturel mondial, ICCROM, 1996, p.23.

a été défini. L'activité du monitoring devrait inciter les gestionnaires à accroître les mesures d'entretien et de prévention, allégeant ainsi le recours à des interventions curatives et de restauration qui ont un coût assez élevé.

Pour les biens inscrits sur la liste du patrimoine mondial par exemple, Il est demandé aux Etats parties à la Convention de 1972 sur la protection du patrimoine culturel et naturel d'établir des rapports périodiques sur l'application de la Convention, ainsi que sur l'état de leurs biens inscrits sur la liste. A cet effet, les Etats parties soumettent au Comité, à travers le Centre du Patrimoine Mondial, des rapports spécifiques et des études d'impact, chaque fois que des circonstances exceptionnelles se produisent ou que des travaux entrepris pourraient avoir un effet sur l'état de conservation du bien patrimonial.

Dans cette démarche de planification, plusieurs composantes sont à prendre en compte ou à mettre en place : une structure de gestion, un groupe de travail et le plan de gestion proprement dit. Ce dernier fait état de plus d'un volet : les activités de valorisation, les risques éventuels, les acteurs potentiels, les budgets à mobiliser, etc.

A- La commission de gestion :

C'est la structure qui se charge de la gestion du site historique ou de l'ensemble archéologique. La commission de gestion a pour rôle de gérer le site, d'assurer son entretien et sa mise en valeur et de conserver les valeurs pour lesquelles il a été inventorié, inscrit ou classé. Cette entité potentielle ne doit comporter au début que les membres désignés à participer au groupe de travail qui sera chargé d'établir le plan de gestion. Après, il sera constitué une structure plus large qui veillera à l'exécution et au suivi du programme de conservation et de mise en valeur du site, conformément au plan de gestion.

La tâche première de cette commission est de superviser le site. Son rôle consiste notamment à orienter les décisions concernant des points qui peuvent porter atteinte à l'authenticité et à la valeur culturelle du site, et enfin à déterminer les formes d'entretien, d'action et d'utilisation les mieux adaptés à sa nature et les plus acceptables pour la population locale.

Bien entendu, cette commission doit se conformer à la législation nationale et l'appliquer, tout en tenant compte des Chartes et des conventions internationales. Elle doit être régie par une réglementation appropriée (le cas échéant complété par un règlement intérieur) et d'un budget régulier, financé par l'Etat et/ou les collectivités territoriales et éventuellement par des recettes des droits d'entrée ou des produits vendus. Les ressources financières reposent sur la capacité des collectivités concernées à fournir le cadre favorable qui garantira la pérennité de la gestion en termes de crédits de fonctionnement. Une structure autonome vis-à-vis de ces collectivités nécessite un cadre légal et un statut juridique particulier, tel celui d'un établissement public, un service géré de manière autonome ou d'une fondation ou association reconnue d'utilité publique.

Toute structure de gestion doit être dotée de ressources permanentes (budget, personnel, etc.) et conforme à un cadre juridique et institutionnel qui assure sa pérennité et qui favorise pleinement l'association de la population locale à cette gestion.

B- Le groupe de travail :

Le groupe de travail est créé au sein de la commission de gestion du site ou du paysage culturel. Il se charge spécialement de l'élaboration du plan de gestion. Il doit se composer d'un bureau et de membres associés. Il serait préférable qu'il soit dirigé par un conservateur du patrimoine, voire un architecte ou un aménagiste urbaniste, familiarisé avec les problèmes de la conservation, de réhabilitation et de gestion des biens patrimoniaux.

Une fois le groupe désigné, l'ensemble des membres concernés seront informés des objectifs de ce plan et de la stratégie adoptée pour son accomplissement. Les différents intervenants seront invités à proposer des projets pour la mise en valeur du site ou de l'ensemble architectural, avec une estimation des dépenses et de la durée d'exécution. Les rédacteurs se chargeront d'esquisser une première version du plan de gestion qui sera soumise à la commission de gestion.

C- Le plan de gestion :

Le plan de gestion proprement dit vise à organiser les activités sur les lieux et à maintenir l'équilibre des fonctions. Il s'agit d'un document par lequel les collectivités territoriales (régionales, provinciales, et communales) et les autorités déconcentrées (administratives, techniques et scientifiques), s'engagent à mettre en œuvre des projets identifiés; ce qui suppose un diagnostic précis, une identification des actions, des financements garantis et des responsabilités bien déterminées, ainsi que l'existence d'un mécanisme de sauvegarde approprié¹.

- ✓ Relevés du site (topographique, architectural, photogrammétrique);
- ✓ Description et définition de ses limites ;
- ✓ Identification et estimation des valeurs du site, du monument ou du paysage (historiques, archéologiques, architecturales, artistiques, communautaires, économiques, culturelles, etc.) ;
- ✓ Evaluation de la dynamique démographique et économique;
- ✓ Description des régimes fonciers et des modes de production et de gestion des terres;
- ✓ Identification des facteurs et des risques affectant le patrimoine culturel et mixte du site ;

Les exigences de forme du plan de gestion font référence essentiellement à :

¹ UNESCO, Méthode d'analyse morphologique des tissus urbains traditionnels, études et documents sur le patrimoine culturel n° 3, 1984.

- ✓ La formulation d'objectifs et l'évaluation des contraintes du site ou du paysage culturel;
- ✓ La définition des projets et la désignation des sources sûres de financements ;
- ✓ L'établissement du plan annuel (plan de travail : gestion, entretien régulier, etc.), du programme d'action à moyen terme et à long terme;
- ✓ La programmation de la recherche et les modalités d'exécution des travaux ;
- ✓ La désignation de la structure de gestion et l'évaluation des besoins en compétences et en personnel ;
- ✓ Les modalités d'établissement de rapport, d'examen des résultats et d'évaluation de l'impact des projets réalisés;
- ✓ Les modalités de révision des plans (annuels, à moyen terme et à long terme) ;
- ✓ La description du procédé de stockage des informations et des données ;
- ✓ Le mode de promotion et de valorisation culturelle;
- ✓ Les modalités de participation de la population locale dans la gestion.

Ces exigences doivent être classées en sections thématiques et le cas échéant en sous-sections.

Quant à celles du fond, elles doivent mettre en évidence :

- ✓ La méthodologie adoptée dans l'élaboration du plan;
- ✓ Le niveau de faisabilité par rapport au contexte social, économique, juridique et institutionnel;
- ✓ L'adaptabilité et la conformité avec les plans d'aménagement urbains ou ruraux.

Par ailleurs, et au vu de l'évolution des différents paramètres, le plan de gestion doit être périodiquement réactualisé et réévalué. D'autre part, il doit faire mention des interventions régulières que la structure de gestion doit envisager. Il s'agit de repérer d'abord les points-clés (une tâche qui revient à la structure de sauvegarde) sur lesquels il faudra des interventions légères et régulières, sans avoir à recourir à des opérations lourdes (restauration par exemple) qui engendrerait des dépenses importantes.

Par ailleurs, il est essentiel de veiller à ce que chaque site archéologique et historique soit documenté systématiquement avant, pendant et après toute intervention. Une fois qu'une intervention a eu lieu, ce qui a été modifié est perdu pour toujours si la documentation n'a pas été convenablement réalisée. La documentation est une activité permanente pendant tout le processus de la gestion d'un site ou d'un paysage culturel.

D- La notion de risques

Outre la planification des activités à entreprendre, l'approche préventive et intégrée de la conservation du patrimoine consiste à effectuer des actions de prévention, régulières et ponctuelles sur des points précis (dits points clés). Ces interventions sont assez minimales, mais sont susceptibles

d'assurer durablement la conservation de biens fragiles. Ces interventions sont pertinentes dans la mesure où elles ont fait preuve de succès dans de nombreux cas; elles sont peu coûteuses, comparées aux opérations de sauvegarde ou de restauration, car elles sont échelonnées dans le temps et supportables en termes de dépenses.

Cette approche fait référence à la notion du risque sur les biens patrimoniaux. En réalité, la gestion des risques est de plus en plus sollicitée dans la préservation des sites archéologiques et architecturaux, en raison, d'une part, de leur complexité (les centres urbains), la vulnérabilité de leurs composantes (structures en terre ou en bois) et la fragilité de leur équilibre (les paysages culturels); d'autre part, en raison de leurs enjeux pour l'humanité. Les sites du patrimoine, de ce fait, sont jugés - à des nuances près - des zones à risque.

Le risque relève de deux facteurs majeurs : naturel et humain. Il est classiquement défini comme l'événement aléatoire pouvant entraîner des dommages; sa réalisation est ainsi génératrice de pertes pour les organisations et les collectivités¹. Il est défini également comme étant un événement prévisible ou imprévisible à fréquence plus ou moins faible, mais de grande gravité². Le risque est dit majeur lorsqu'il s'agit d'un événement déstabilisant pour une collectivité donnée³. D'une manière générale, la notion du risque est fondée sur trois composantes essentielles :

- ✓ L'aléa : la probabilité d'un événement qui peut affecter les collectivités et les systèmes qui les régissent;
- ✓ Les enjeux: il s'agit des personnes, des biens et de l'environnement menacés par le risque majeur, susceptibles de subir des dommages ou des préjudices. Ils sont de quatre ordres : humains, sociaux, économiques et écologiques ;
- ✓ La vulnérabilité: c'est la mesure des conséquences dommageables de l'événement, sur les enjeux en présence⁴.

Quel que soit le domaine dans lequel elle se réalise, la gestion des risques comporte fondamentalement deux dimensions complémentaires. La première concerne ce que l'on pourrait qualifier de gravité ou de conséquence préjudiciable associée au risque (quantifiée socialement, économiquement et financièrement). La seconde est relative à la décision prise face au risque et le coût associé à cette décision.

En matière du patrimoine archéologique et bâti, cette approche devient de plus en plus sollicitée. A ce titre, le Conseil International pour la Préparation aux Risques (ICORP) offre un cadre institutionnel de réflexion et d'intervention dont les professionnels du patrimoine (national ou

¹ Marmuse C. et Montaigne X., Management du risque, coll. Vuibert Entreprise, Paris, 1989, p.45

² Secrétariat d'Etat chargé de l'Environnement et de la Prévention des Risques technologique et naturels majeurs (France), Le risque majeur, coll. Le livre général., s.d. p.7

³ Ibid. p.8

⁴ Ibid., p. 24

mondial) doivent s'inspirer. Plusieurs autres organismes spécialisés proposent des programmes de formation périodique en matière de gestion du risque dans le cadre de leurs plans d'action.

Dans le contexte marocain, la gestion des risques est liée le plus souvent à la gestion des entreprises. En matière d'urbanisme et d'aménagement de l'espace, elle commence à intégrer la conception des urbanistes et des aménagistes, alors que chez les conservateurs du patrimoine, elle n'est pas encore à l'ordre du jour de leur démarche, bien que le risque fasse partie de leur quotidien.

La gestion des risques repose essentiellement sur l'identification des facteurs du risque et sa localisation, la détermination de leur impact une fois le risque réalisé, la probabilité de sa réalisation et la démarche à suivre au cas où il devient réel. L'identification des points vulnérables au risque est, en effet, une étape fondamentale. Ces éléments peuvent servir d'indicateurs clés sur l'état de conservation¹. (Les indicateurs clés sont par exemple des témoins utilisés pour mesurer l'impact de l'aménagement du territoire et de la construction des infrastructures, de l'évolution urbaine dans le cas de paysage urbain, l'évolution des fissures sur les structures d'un monument (généralement en matière plastique tel le plâtre), ou bien fondés sur des observations visuelles directes des fissures, des glissements de terrain, des affaissements de rochers, de la salinité des sols et de l'érosion).

Il faut tenir compte également des risques comportementaux, émanant des visiteurs ou dus à des mutations sociales dont l'abandon constitue un risque majeur. Il ne faut surtout pas perdre de vue que, si la fréquentation des visiteurs présente une opportunité pour l'économie du site ou du monument, il n'en demeure pas moins un facteur de risque qu'il faut savoir prendre en compte. A ce titre, l'institution des droits de visite serait en mesure de quantifier la fréquentation et d'en évaluer le risque. Mais il faut avant tout, établir une carte et une grille d'analyse des risques (inspirée des facteurs affectant le bien) qui sera la référence en matière de détermination des coûts de gestion, de la capacité d'intervenir et des actions prioritaires.

3- La gestion intégrée des biens patrimoniaux :

La gestion intégrée des sites archéologiques ou des ensembles historiques fait souvent référence à la conservation intégrée; une notion qui revient dans la littérature relative aux méthodes contemporaines de conservation des biens patrimoniaux, situés dans des contextes aussi bien urbains que ruraux. Les biens ne sont plus considérés individuellement ou indépendamment du contexte où ils se situent et évoluent. Tous les éléments du contexte (physique, naturel, économique, social, etc.) sont pris en compte dans les actions de conservation du patrimoine. On parle dorénavant de « Paysages Culturels » et de « Systèmes Culturels Territoriaux » (SCT)².

¹ CEP-UNESCO, Rapports périodiques et programmes régional : Etats arabes 2000-2003, 2004, p.47.

² Un projet a été initié dans le cadre du projet de partenariat Delta qui consiste à la mise en place de ces systèmes culturels territoriaux (SCT). Le projet pilote a eu lieu dans la région de Meknès Tafilalet, une étude a été élaborée et a déjà commencé à donner ses fruits sur les cf. Delta, guide méthodologique, (diffusé sur internet).

Au niveau mondial, l'approche des paysages culturels a tendance à être privilégiée dans la gestion des sites patrimoniaux. Elle favorise une conception du patrimoine comme système intégré où la relation entre les parties a plus d'importance que les parties elles-mêmes. L'approche conventionnelle du patrimoine s'attache à l'état de conservation, des caractéristiques et des éléments particuliers des biens. Une approche du paysage culturel privilégie les processus essentiels qui ont modelé - et continuent de modeler- le caractère du paysage. Nombreux sont les paysages culturels qui continuent à évoluer : la difficulté, pour les gestionnaires, est alors de guider le processus de telle sorte que les qualités essentielles du lieu perdurent¹.

La gestion des paysages culturels met en valeur les techniques traditionnelles de gestion en matière de ressources naturelles et d'utilisation des terres. Des mécanismes qui ont su préserver l'équilibre écologique des sites, ainsi que l'interaction entre l'Homme et son environnement. La qualification des sites patrimoniaux de paysages culturels offre de nouvelles opportunités devant les gestionnaires afin de réhabiliter des modes de gestion en danger et de restaurer l'équilibre qui a tendance à s'effondre.

La gestion d'un paysage culturel passe forcément par la participation de la population qui est concernée en premier lieu. Les processus de conservation et de gestion des paysages culturels réunissent des individus soucieux de leur identité et de leur patrimoine collectif, créant dans un contexte communautaire une vision partagée de responsabilité, de solidarité et de gestion commune.

De nouvelles approches de la formation et de la gestion du territoire et des paysages, comme celles de l'UNESCO, de l'ICOMOS ou de l'ICCROM, sont recommandées pour les gestionnaires de sites archéologiques ou de monuments historiques. Ces organismes insistent sur l'intégration du patrimoine culturel dans la gestion durable des établissements urbains et ruraux. Le volet territorial de ce mécanisme aborde une large série de sujets, dont des stratégies pour le développement des paysages vivants, la gestion des sites dans les paysages conçus intentionnellement et les paysages reliques. L'accent est mis sur la gestion durable des valeurs patrimoniales des paysages dans le contexte de la diversité des cultures et des pratiques traditionnelles existantes dans le monde.

Le Maroc aura intérêt à intégrer une telle démarche pour en assurer une large diffusion au niveau national, au sein des gestionnaires des sites ayant des similitudes avec les paysages culturels conventionnels.

¹ Cf. Paysages culturels : les défis de la conservation (en anglais seulement), Centre du Patrimoine Mondial, 2003 (p.173). Sur le sujet, voir également Gérard CHOUQUER, Patrimoine et paysages culturels. Actes du colloque international de Saint-émilion (30 mai-1er juin 2001). Coll. Renaissance des cités d'Europe Éditions Confluences, octobre 2001 (synthèse des interventions diffusée sur Internet).

4- Le développement de l'économie et des stratégies marketing spécifiques au patrimoine

Malgré les résistances et les hésitations quant au développement d'un secteur d'affaires spécial à la culture en général et au patrimoine en particulier, la valorisation économique du patrimoine archéologique et architectural est devenue une réalité mondiale. Certes, des questions de risques de résumer les biens patrimoniaux en simple produits du marché classique de la consommation sont toujours posées. Or, des garde-fous réglementaires et institutionnels peuvent être développés, afin de lutter contre tout éventuel dérapage. L'utilisation des techniques du marketing et de promotion du patrimoine archéologique et architectural doit prendre en considération les dimensions culturelles, techniques, sociales et pédagogiques de son exploitation.

Aujourd'hui, Il est de notoriété que toute stratégie de valorisation du patrimoine culturel en général exige la conciliation de la sauvegarde à la réalité socio-économique et culturelle; autrement dit, articuler les objectifs de la conservation et de la sauvegarde avec la réutilisation des sites et des ensembles historiques, en leur conférant des fonctions liées aux besoins quotidiens de la population. Cette orientation permettra d'éviter de faire de ce patrimoine un simple héritage sans horizons, ou un « musée » sans vie et permettra de lui insuffler vie et vitalité. Plusieurs choix peuvent être opérés :

- ✓ Sur le plan de la recherche scientifique, le patrimoine archéologique et architectural reste un domaine d'intérêt grandissant, eu regard aux opportunités et aux perspectives de développement qu'il offre ;
- ✓ Sur le plan de la préservation, la mise en valeur intègre tous les métiers et les savoir-faire de la restauration, que celle-ci intéresse les monuments ou les objets. Elle intègre aussi les actions de mécénat et de sponsoring dont le retour d'images pour les mécènes, qu'ils soient des personnes, des fondations ou directement des entreprises, n'est point négligeable;
- ✓ Sur le plan de la réhabilitation, le champ est large et très diversifié : les monuments peuvent être réhabilités en galeries d'art, en musées, en centres d'interprétations du patrimoine, etc. comme ils peuvent rester tels qu'ils sont et être visités comme bâtisses historiques ;
- ✓ Sur le plan de l'animation enfin, la dimension économique intègre bien tous les métiers de l'artisanat, de l'animation culturelle et du tourisme culturel.

Certaines activités représentent un potentiel économique et d'autofinancement important, notamment le tourisme culturel, l'artisanat et les industries créatives. D'ailleurs, le savoir-faire traditionnel et les métiers du patrimoine, ainsi que le mode d'usage des matériaux naturels et traditionnels, sont des sources de créativité et de durabilité importantes. Le savoir-faire et les métiers du patrimoine peuvent représenter des pistes pour lutter contre la pauvreté et le chômage, et pour trouver des solutions innovatrices pour faire face aux exigences du marché.

En effet, pour établir le tourisme comme industrie durable au profit des populations locales et sans corrompre l'identité culturelle de ces populations, il est nécessaire d'assurer l'appropriation

locale des activités, la bonne gestion, l'implication des groupes socio-économiques les plus faibles et l'investissement d'une partie des revenus dans la sauvegarde des ressources locales, et dans la revitalisation des métiers traditionnels¹.

Le Maroc ne doit pas échapper à cette tendance qui présente des possibilités diverses, notamment en matière de développement et d'exploitation des ressources patrimoniales, d'où la nécessité de leur conservation par la réalisation d'un plan général de sauvegarde plus rigoureux. Une fois bien exploitées, ces richesses joueront, sans aucun doute, un rôle primordial dans le développement humain, social et économique.

Conclusion :

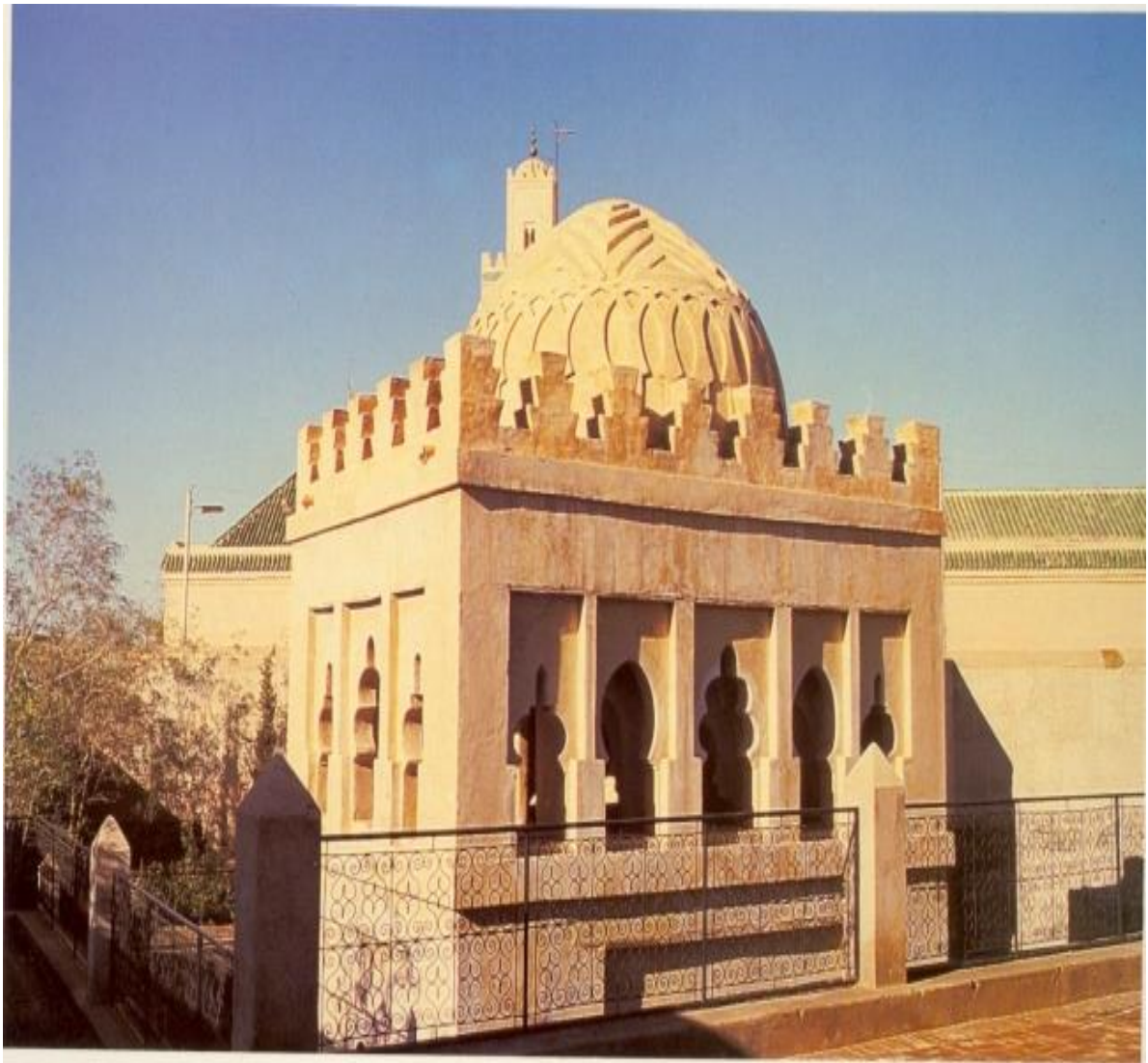
En guise de conclusion, la conservation et la promotion du patrimoine archéologique et bâti du Maroc devrait faire objet de stratégie intégrée et globale, concrétisées par le déploiement de mécanismes assurant le meilleur aboutissement des processus de valorisation. Certes, la réussite des processus de mise en valeur reste tributaire de plusieurs dimensions. Outre les dimensions institutionnelles et réglementaires, qui restent fondamentales et prioritaires, (dans l'optique de redéfinir le rôle des institutions chargées du patrimoine culturel à différents niveaux, de renforcer les capacités de planification et de coordination), il est opportun de souligner l'importance de la dimension managériale ; celle-ci opte pour la mise en place d'une stratégie et une politique dynamique du patrimoine qui doit considérer ce dernier, dans les approches qui lui sont appliquées, comme un tout. Cette politique doit intégrer, de manière égale et inter pénétrable, les dimensions scientifiques, techniques et économiques. Les actions de préservation ne peuvent donner de résultats sans une planification réfléchie, concertée et rigoureuse.

Bibliographie

- Berriane (Med), « Tourisme, culture et développement dans la région arabe », in Décennie mondiale du développement, pub. UNESCO, 1999.
- Centre du Patrimoine Mondial, Paysages culturels : les défis de la conservation (en anglais), 2003.
- CEPM-UNESCO, Rapports périodiques et programmes régional : Etats arabes 2000-2003, 2004.
- CHOUQUER (Gérard), Patrimoine et paysages culturels. Actes du colloque international de Saint-émilion (30 mai-1er juin 2001), Coll. Renaissance des cités d'Europe, éd. Confluences, octobre 2001.
- De Maret Pierre: « Recherches archéologiques, protection des sites et création d'emplois. Perspectives pour l'Afrique Centrale ». in Culture et Développement en Afrique, actes de la conférence internationale organisée au siège de la Banque Mondiale, à Washington 2-3 avril 1992, pp. 409- 426.
- Feilden (Bernard M.) et Jukilehto (Jukka), Guide de gestion des sites du patrimoine culturel mondial, ICCROM, 1996.

¹ Berriane (Med), Tourisme, culture et développement dans la région arabe, in décennie mondiale du développement, pub. Unesco, 1999, p.27

- Frier Laurent (P.), La mise en valeur du patrimoine architectural, éd. Le moniteur. Paris, 1979, 247p.
- **Latarjet (Bernard)**, *L'Aménagement culturel du territoire*, La documentation française, Paris, 1992.
- Marmuse (C.) & Montaigne (X), Management du risque, coll. Vuibert Entreprise, Paris, 1989.
- Moulard (Claude), L'ingénierie culturelle, Coll. Que sais-je ? PUF, Paris, 1994.
- Secrétariat d'Etat chargé de l'Environnement et de la Prévention des Risques Technologique et Naturels Majeurs (France), Le risque majeur, coll. le livre général, s.d.
- Taboroff (June), « Intégrer le patrimoine culturel aux programmes de développement », in Culture et Développement en Afrique, Actes de la conférence internationale, organisée au siège de la Banque mondiale, à Washington 2-3 avril 1992, pp. 351-371.
- UNESCO, Méthode d'analyse morphologique des tissus urbains traditionnels, études et documents sur le patrimoine culturel n° 3, 1984.



العدد السابع عشر
أكتوبر 2017 م

مجلة لبيك الواس

+00481+ 1122080
مجلة إلكترونية متخصصة في التاريخ و العلوم الانسانية

ملف العدد

الحركة الثقافية والعلمية بسوس خلال العهد السعودي

محتويات العدد

- مدن لقا تاريخ : مدينة تعبة القديمة
- الأرشيف بين المقوم والمضامن والوظائف
- التاريخ المتاصر : المجتمع المغربي قبل الاستعمار بحوض سيدة اطرية
- التاريخ القديم : رحلة حانون من خلال بعض المصادر الأدبية والمعطيات الأركولوجية
- فضائيا من العصر الوسيط : التجارة و العدا خلال الفترة الوطاسية
- الزمن الراهن : العلاقات المغربية الكولومبية
- ملامح من نضال المرأة المغربية ضد الاستعمار الأجنبي
- تاريخ المغاربة : قراءة في الشعر النثوي و النوري التونسي

المدير المسؤول : محمد أبيهي

العدد الرابع والعشرون
فبراير 2018 م

مجلة لبيك الواس

+00481+ 1122080
مجلة إلكترونية متخصصة في التاريخ و العلوم الانسانية

ملف العدد: قضايا تاريخ المهوشين

العبيد في تاريخ المغرب المعاصر

محتويات العدد:

- موقف الفقهاء من الاستبدادات خلال العهد السعودي.
- قضية الدراطين في عهد السلطان الولى اسماعيل.
- صناعة السكر في العهد السعودي.
- رور مقدسة عالمية قديمة.
- الأريف الشرقي، في مسار بون الأفرقي.
- الوجود الفرنسي بهجال أفا: المسار والقانون.
- الإنتاج الفلاحي خلال الفترة الوطاسية.
- مؤسسة ركب الحاج المغربي.

المدير المسؤول: محمد أبيهي

العدد العشرون
يناير 2018 م

مجلة لبيك الواس

+00481+ 1122080
مجلة إلكترونية متخصصة في التاريخ و العلوم الانسانية

2018
سنة سعيدة

ملف العدد: صفحات من تاريخ العلاقات المغربية الجزائرية

مساهمة المغرب في ثورة فاتح نوفمبر 1954م

محتويات العدد:

- حركة الفداء وتوافقات إكس لبنان.
- أعلام المغرب: العالمة ومحمد السنوسي.
- إصلاح التعليم المغربي ون منظور محمد الحجوي.
- توترات الهجامة بين الضخفة والتاريخ.
- مفهوم تاريخ الزمن الراهن: قضايا وتساؤلات
- فيدرالية جبهة التحرير الوطني بفرنسا 1962-1955م.
- السياسة الخارجية الفرنسية وتأثيرها على المجتمع الجزائري.
- حكومة "الكلي" الأولى 7 جنتير 1955م.

المدير المسؤول: محمد أبيهي

العدد التاسع عشر
ديجنبر 2017 م

مجلة لبيك الواس

+00481+ 1122080
مجلة إلكترونية متخصصة في التاريخ و العلوم الانسانية

ملف العدد:

الحرف بالمغرب والموجة الكولومبالية إبان فترة الحماية

محتويات العدد:

- المغرب الوسيط: دور المرابطين في ربط المغرب النقص بأفريقيا.
- العصر الحديث: التصوف السني في خدمة المجتمع والثقافة بالمغرب السعودي.
- الهابة بين الفاعلية والتهميش خلال العصر السعودي.
- الفرصنة في المتوسط خلال الفترة الحديثة.
- تاريخ المغرب: الشيخ وحسي الدين بن مصطفى الجزائري والزاوية القادرية.
- قضايا ومن التراث: المهاجرات الأندلسية بولدت الجنوب المغربي.
- رحلة الأت: منهج الكتابة التاريخية في رحلة أبو القاسم الزباني الهسبة "الترجمة الكبرى".
- رحلة الروسي كوستانتين فيلاريتسكي إلى المغرب.

المدير المسؤول: محمد أبيهي

الوقالات المنشورة بالمجلة تعبر عن آراء أصحابها